فرصة هدف

فرصة هدف

عباس مدحت البياتي

\

مراحل الكتابة

هواية الكتابة؛ مثل نبتة وجدت اهتماما مضنيا عن بقية النباتات؛ حتى ترسخت جذورها في بواطن الذهن، ما لبثت كبرت في الفكرة، ترعرعت، غدت شجرة ترتع في فيافي الروح، غدت جزءا مهما من اهتماماتي اليومية، كالأكل والشرب، لا أنفك عنها ولا تنفك عني..

ابتدأت تسفر عن ذاتي منذ اللحظة التي بدأت بها أكتب ثم أمزق ما أكتب لأعود مجددا أبحث عن ذاتي بين أوراقي الظامئة. رافقت هوايتي مطالعة مطاطية لشتى أنواع الكتب، تولعتُ بكتب القصص والروايات بشكل عام، تلك التي فاضت لها نفسي شوقا ورغبة.

مع بلوغي بدأتُ أضع لبنة الحس بالكلمة، لأعمق مفهوم الجدل في التجربة، كما برحت أحتفظ بالخواطر والأشعار على رفوف الذاكرة، نتيجة تراكم عقد الحياة المصاحبة لنشأتي وبلوغي، باحثا عن لغة الاستقرار المرئية والغير المرئية حسب قياسات النظرة والهدف في مفهوم النفس للمادة وحسابات أخر تداخلت في صيرورة الحياة. ومع اشتداد العقد في الذات والوطن؛ ذبلت وتراخت تلك النوايا، انعكفت في مسايرة الغاية.

صفة البعد عن المحك جاءت بسبب البحث عن الفضيلة في منعطفات الحياة، والتي جزلت فكرة الكتابة بين عجز وكسل وظرف أهوج، لذاك استسلمت إرادتي لانشغالها في البحث عن الهوية والأمان النفسي والمادي وسط ظرف بركاني آل بالمجتمع إلى التدهور. ذاك ما أجهد الذهن والجسد، مع استمرارٍ دائبٍ للمحاولة والتجربة في البحث عن الهوية.

ولكن هيهات..

أن أغشيت الرغبة لحظة تعود ليقظتها، تتبع خطا الأحلام، تهز الفكر والبدن، تغيظ النفس، تبعثر الشك بين مجالات اللذة والانتماء،

فأصحى على عبق رائحة الورق، أهجس بذاتي فراشة تطير بين خمائل اسطرها، لأعود بروح صاغرة، تحث نزواتي نحو التمهيد والتجديد، نحو الغوص بمغامرة جديدة في جوف الرغبة، وبخطوات بعث جديدة ومتأصلة.

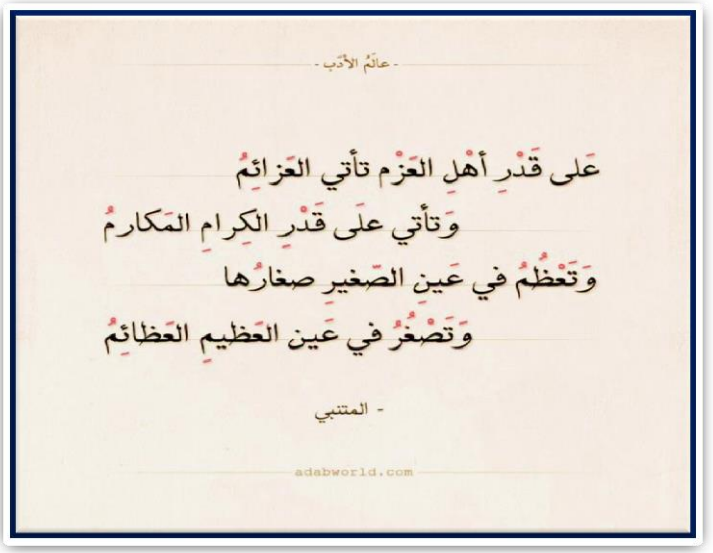

القصص

1- الإعصار..... 7
2- متاهات الأقدار..... 19
3- نبع الحنان 34
4- فرصة هدف..... 40
5- المتسول 52
6- الفضولي 67
7- بياض الدم 85
8- الصدمة 102
9- الرحلة المؤجلة..... 110
10-مدن دافئة.....135
11- صراط القلوب 145

الإعصار

لم يبرح لقاؤنا الذي كان همسا لقاءً عابراً، حيثما افترقنا شعرت بخيوط الشمس تذيب ثلوج السراب، تلك التي أخفت في ديجورها أحلام نزيهة حِقبا من الزمن، وهيَّ تتلوى بين وجل وجلد، باحثة عن يقين غزل، بين معاكسات الشك المتكررة.

الغربة جمعتنا في بيتها الزجاجي، الفكر توقد من زيت الحنين، بين الغربة المرة والفكر المتقد؛ انسابت الأشجان في جداول أمل، زحفت خلف هواجس الظن، لتسقي تلك الغصون التي عراها الزمن.

بعد لقاء سريع كنا قد افترقنا، ولم تفترق مشاعرنا عن أريكة اللقاء، كأنَّها كانت موعودة بجولة أخرى مع شجون الحديث، حيث الطيور المهاجرة دائما ما تعود لأعشاشها، تتأمل الخواطر أن تحف الأحلام بمخزون من الأمل.

على الأقل هذا ما كان يخامرني، ويوخز أنامل أحاسيسي بكل الصور الآهلة التي أغوت حقول فكري وتربعت على شريعة الذات لأجل قادم.

مع افتراقنا؛ تركت في خواطري حيرة صماء، ماهت كصمت في أفكاري، اختصرت المسافات البليغة لمرمى البصر. حيرة ارعشت أوصالي، جزلت نظراتي، أربكتني نتيجة وطأة الخوف القادم من غدر الزمن... كنت قد وجدت في حدقاتِ عينيها تنهدات أرق، وفي وجنتيها ظلُ خجلٍ، بانت كواحة صحراء تناجي القمر في تسهدها وهي تودعني.

ظلت تلك اللحظة تلسع ذاتي، لتنحت أثرٍ في الذهن، بحيث صار يشتعل حنينا حين تهمس الذكرى، كأنَّ الأطياف ما كانت أطيافا تراودني، بل أقمارا تتصفح الليالي، بحثا عن أسرار العيون الساهرة.

تلك الانفعالات طغت على جدول احلامي وفصل تخيلاتي، جرفت قارب الود لموجات الفؤاد المضطربة، صيرته جزء من ثورة الشبق والأحلام المؤملة، بحيث أضحت في كل ثانية من العمر تنذرني بالإعصار القادم.

تركتُ هاجسي يتسلق تلك الأمواج المتعاقبة على صدري كحشرجات متيم، مع توالي الأيام زدت رهقا وعذابا بها، فلا يقين نمّ عن أمل، ولا شكّ دمَّ وأحتضر.

الأمر تعلق بخيط الغد الرفيع، الذي التفّ على عنقي، حينها كنا قد اسهبنا في حديثنا، أغدقنا بما فيه الكفاية، بكل ما في جوارحنا من فدفدة الأماني الطيبة، عبر لقاء قصير كان أشبه بلقاء الطيور المهاجرة. الصدق كحل حدقات العيون، الحنان أغشى الأفئدة، ودٌ رقَّ في خجلٍ بارقٍ في وجناتنا، عاطفة ما ساحت بنزق شوق رطبتْ أمنياتنا.

كل ذلك كان دافعاً لكسرِ حاجز الخجل، والتصافح عبر النظرات، ودغدغة الفكر والمشاعر بنغمات الود، والتعطر من زجاجة السحر، والانسجام بما أفضي للمرح روح جياشة، دفعت النشوة تغمر وجوهنا، لتطفو سرائرنا فوق كل ذي صمت ورنيم.

كنا أشبه بحمامتين التقتا على نبع ماء، كل باح قصته على أوتار شجنه، بحيث تمكنا من غزل خيوط المشاعر في ضفيرة واحدة، دلفت الأشواق لمصبها.

ونحن منغمسين في فتنة بعضنا البعض؛ هجست بالأشجار

كأنها سمعت هديل صدحنا، رأفت بنا، فرشت ملاءة ظلالها فوق رؤوسنا، جاملتنا، حضنتنا، عزفت لنا سمفونية العشق بحفيف أوراقها.

وحين طرقت ذهنينا صرير ريح موحش، دبّ وجل بأوصالي، انزوت سرائري خلف الغاية المرادة مع لحظة الوداع. شعرت بخيوط الحب معشقة بتلابيب الفؤاد، أدخلتني في أجواء الرغبة، جالت بالروح في أروقة الصمت، أفصحت عما كان يجول في خاطري، طفحت على ملامح وجهي، لتشع كقنديلٍ سرمديٍ يسطع بأبراج العشق الأزلية.

كنت أهجس بفراستي حاضرة بين مخالب الحدق، تتصفح خطوط التأمل المنثورة في إيماءات وجهها، تلك التي لا تستطيع أن تهرب من قيدها، لا تستطيع كبح جماح انفعالاتها، ظل الفكر يرتع بعيدا عن مساءات الحزن والغموض المحيط بهواجسها، تلك القابعة على عرشها كسلطان للوحدة والغربة.

أبصرتُ ذلك بتمعن، مما جعلني أسرح في أعماق الرغبة بين أفانين الشك وأزاهير اليقين، لم أطرق أبواب الصدفة أبدا بحثا عن الغاية المنشودة، بل تأملتها مليا وقرأت شجونها وهجست بلمسها؛ حتى راغت ذوائبها في كنفي.

وقبل أن يظلنا الزمن ونفترق كنت قد تركت لها رقم هاتفي، ليبقى دليل رغبةٍ وهوسٍ شدني إليها، عسى أن تبقى للمحاولة ملاذا بين نواهي الفكر، وكأني بذلك تنصلت من الحجج وتركت غسيل الشوق على غارب حبلها.

مضت الأيام تأكل بعضها، القيد حز ساقي، لمْ أستطع أن أبرح أسوار مشاعري الراكدة التي طبعت بصماتها على جدران الفؤاد، والتي غدت شموعَ ودٍ تتقد في أروقة الفكر دون إرادة.

كـل الأوصـاف التـي تأملتهـا فـي رهقـي والتـي شـاقت فكـري وبصـري وكالـت لـي مشـقة العـذاب، مغروسـة فـي قامتهـا وذاتهـا كالخضرة المنغمسة في ورق الشجر.
شـعرها الرمـادي منسـاب علـى كتفيهـا كنسـيج شـلال مـن العتمـة، يشـهق بأضـواء السَـحَر. يخضـل بشـرتها لـون برونـزي جـذاب، تبـدو بإشـراقة وجههـا كمـرآة عاكسـة، تسـتنبط أنوثتهـا مـن وحـي الجمال والخيال.
أنفهـا متقـد بحيويـة، كمصـباح يـبهج وجههـا، شـامخ بكبريـاء ونبـل، شـفاهها الرقيقـة ملونـة مـن وهـج الفـؤاد، قوامهـا الرشـيق مثقـل بـالفتن كنخلـة باسـقة، بكيانهـا تبـدو كثرثـرة عنـادل مهوسـة بالتسـابيح الإلهية.

تلـك الأوصـاف جعلـت الـروع يغـزل شـوقا علـى شـباك القلـب، يرسـم صـبرا فـي خانـات الانتظـار، رغبـة تسـللت لأعمـاق الـذات عبـر ثقـوب أمـل دقيقـة، بـدت كخيـوط شـمس مسـتطيرة، تنشـد معزوفة الحلم ليوم اللقاء القادم.
مـع افترقنـا؛ أوحـى ألـيَّ اليقـين بلقـاء قـادم، علـى الـرغم مـن أن حـواجز اليـأس غطـتْ علـى حـدقي، حيـث كانـت فتـرة الفـراق جلـدة ووخيمـة... لحظـات سـرحان وصـمت رافقـت ظنـي، جعلتنـي فـي تيـه أمـام هيجـان الشـوق واللهفـة، كنـت فيهـا قـد فقـدتُ التركيـز والثبات، أنه الهيام بعينه وبكل ما تعنيه الكلمة.

عزف وله أصاب الذهن
شفَّ ندى الذكر من الذاكرة
أصبحتُ كفراشة مجنونة
تبحث عن تفسير معرفة نكرة
تتبع كلمة أمل في مضامين الغد
لتغسل الفؤاد من ما أوزره.....

ركبتُ مطية زمن طال صمته
لم أحتمل جدران غرفة مسكرة
في هيامي ظللت كل الطرق
بحثا عن صرة سعد مصرصرة.
متأملا رجاء لقاء جديد يجمعنا
على إثاف نار صبر جمرة
***

في لحظة عابرة، دون أن تكون لي فيها صفة مؤثرة؛ كانت قد تذكرتني، هاتفتني، حلت عقدة حيرتي دون موعد؛ وذلك حين رن الهاتف وهو يمحق لحظات نسيان اسمها.

ترن – ترن –ترن – ترن.

كان ذلك قد حدث في مساء يوم الخميس، بعد أن أوشكت على نسيان ملامح اللقاء العابر تماما.. كان الملل قد راغ في كاس أهوائي، تمادتْ كثيرا في قطع حبل الوصل، هجست ذاتي تحبو خلف لحظة الرجاء، أشبه بالطفل يتوق لعبة.. تائه بظني، لا أدري أين تأخذني أقدامي، لا أمتلك خيط وصل يصلني بها، سوى هاجس ود ماه بين الأحايين.

فيما مضى لم نكن قد أيقنا بحقيقة مشاعرنا، لا أدري أن كانت شغفت بي مثلما شغفت بها؟ لا أدري أن هزتها مفاتن رجولتي أم لا ؟ ...

لا أملك دليلا، سوى شك طاف مخيلتي، غدت طيور الود تجوب فضاءات الشوق دون أن تدرك أعشاشها، كنتُ قد تركتُ مفاتيح الوصل بين يديها، بعد أن لاك الفراق بنا.

رنَّ الهاتف، طفح الحنين، تنملت أطرافي، وفي عجالة من أمري قفزت هواجسي على طاولة الظن، ارتقت همس النداء، لمست صوت الود وهو يزكب فيض الشوق في كأسي.

أمسكت بالهاتف، وإذ بي أسمعه يبوء بصوت رقيق أعرفهُ،

كهمسات الورد للفراشة. كهسيس النار للحطب. انساب الصوت في طبلة أذنيّ كعزف ربابة، بث سكينة في صدري، جردني من قيد الكدر الذي أرهق أوصالي، أضطرب الفؤاد، تسارعت نبضاته، أنتصب شعر الرأس كحقل سنابل، كدت أفقد السيطرة على نفسي وأنا أنصَّتُ لهمسات الود وهي تبعثر بها بهدوء كنسمات فجر تبحث عن الشمس.

- هلو .... مساء الخير.
- مساء النور والسرور ..ك ..ي....ف ....حا ... لك!
- الحمد لله بخير .. تهمني سماع اخبارك ....
- مشتاق للقياكِ أين أنت؟ لِمَ هذه القطيعة؟
- بكل سرور...هذا ما وددت أن أخبرك به!! .. ممكن أن نلتقي غدا صباحا في كافتيريا الفجر، في تمام العاشرة صباحا؟
- أكيد من أجل عينيك ألغي كل مشاويري، شكرا جزيلا على لطفك وعطفك، سأكون هناك بالموعد فلا تتأخري.
- إذاً غداً سنلتقي بأذنه تعالى، انا مشغولة الآن سامحني .مع السلامة.
- مع السلامة

لم تدم المكالمة طويلا، ربما لا يوجد ما نود أن نفرط به، أو الذي نود أن يطول الحديث به لم يكن جاهزا وحاضرا في حينه. ربما الخجل لصم فاهي، ربما المفاجأة جزلتْ فكري، هزتني، أنستني ذاتي، فبقيَّ الشوق يعاني من عنق الزجاجة.

لم يسعفني الحظ في حينها لتسليك المحاورة، ولم يسعني الزمن لإعادة تدوير اشواقي ومشاعري، الخجل سف كلماتي، بتر أفكاري، أرهق ذاتي، لم يدع لي فرص قطف ثمار اللقاء قبل النضوج، بقيت الأمور معلقة بلقاء الغد...

كما أن ما أود الحديث به لا يدخل من باب الهاتف الضيق، ما أود البوح به لا تسعه فيافي الشوق كلها، لابد للمشاعر الجياشة والإيماءات المعبرة والتفرس في وجه الآخر من أن يفرش ظلاله ويفرض سلطانه. لابد من لقاء لتتكسر الأمواج على صخور الشاطئ، لنضع حدا للتكهنات المعيقة، لننهي تلك المراهنات النازفة، كي تستقر الأمور في نصابها.

تلك المحادثة الخاطفة تركتْ في نفسي شجون أبعدتني كليا عن هاجس الضغط النفسي الذي تكبلت به، بت أستشعر بما حولي وبما يحيط بي من وجد، أضحى فكري مشغولا بترددات أمواج كلماتها التي قبعت في الذهن...(أرجو لقائك غدا في كافتيريا الفجر)... إذا لا يأس مع المحاولة.

حينها تخيلتها قابعة فوق سنام الحب، ترفد ظني بإيماءات الحلم، محاطة بتمائم الحرز من الحسد، زرعت في ذاتي أمل، جعلني أطوي فيافي الخريف من الذاكرة.

إذا غداً سأضع النقط على الحروف، سأنفض الغبار من على الجسد، سأمضي بيقين، بحثا عن سكون يليق بي وبها، وليس الغد ببعيد.

***

تحزمت بأمل تراءى لي كضوء يخترق الدجى، ينفذ من سدم اليأس، من عيون الظن، سعيت خلفه بشيء من الثقة والعناد والصبر. شعرت بالوقت بات يبطئ في سيره نحو واقع الحلم الأسير، هجست بالريبة من المفاجآت، هممت بخطوات وئيدة نحو اللقاء وأنا أرنوا بها إلى الحديقة النضرة، تلك التي تكمن بها الكافتيريا قبل الموعد بساعة زمن.

خرجت بأبهى صورة، برفقة الوجل والهيام وشذى العطور

الفاضحة لسري، بت أرى ذاتي في عين كل من يدقق النظر بشخصي. ماشيا بمحاذاة الشارع، وكأني الوحيد في هذا الكون، أشعر كأني ذاهب لساحة وغى، لمصير مجهول. تكبلت خطواتي بين شعوري بالنصر والهزيمة في آن واحد.

كنت أعاني من لحظة تاهت فيها الخطوة بين زهو النجاح وطامة الفشل، جلست جانبا على كرسي وحيدٍ، أحتضن طاولة دائرية صغيرة يحيط بها كرسيان، متأملا ذاتي تحت ظل شجرة صفصاف باسقة، تنفض غبار اليأس عن الذهن.

مشاعر لا أحتمل المماطلة بها، فأما أكون أو لا أكون، تلك هي الصخرة التي أود الوقوف عليها، أراها قريبة مني وهي أبعد ما يكون.

زهور مترامية الاطراف من حولي، زقزقة العصافير توحي بصبح بهيج، مناظر لطيفة تهدئ الأعصاب المتوترة.

لم ألبث طويلا؛ حتى بانت ملامح جسدها يشرع في الأفق وهي تخترق ثنايا الأشجار كشهب يخترق دجى الليل. تمشي الهوينا؛ ملاك تتخطى أدمة الأرض بسحرها وجاذبيتها. فستانها الوردي يهف مع ريح خطوات قدميها، تظفي بهجة تتناغم مع لون شالها البنفسجي، وكأنها غصن بان ينسلت من بين صفوف الشجر.

مع كل خطوة تخطوها، تغز أوصالي إبر الرعشة، يتثاقل جسدي، تصطك أسناني، رغم أن الطقس معتدل في شهر نيسان. لم أكن قد مررت بتجربة مسبقة، أول مرة أشعر بهذا الاضطراب، أول مرة لا أستطيع كبح جماح نفسي، ولا أشكم قلقي، أضحيت هائما، لم أعد أمتلك مفاتيح الصبر.

لا أعرف كيف تمالكت نفسي؛ حين أجبتها بصباح الخير ردا على صباحها:.....

- كيف حالك يا أثير.... إنشاء الله بخير..
- الحمد لله .. اشتقت لك يا نسمة.. أين اختفيتِ، الأجواء باردة دون شمسك، لم كل هذا الجفاء؟..
- الله الله على شاعريتك اللطيفة.. شكرا لإحساسك الجميل. الحقيقة انشغلت في أمور جمة أنستني أحبتي.
- كدت أظن بأني قد أصبحت في خبر كان، لم تذكرينني حتى في رسالة مسج.
- لا تقل ذلك، لن يستطيع أحدا أن يجتثك من فكره. مكانك محفوظ في الروح والقلب.....

نطقت بذلك وعيناها شاردتان في السماء، وكأنها لا تود أن تسمعها الطيور والأشجار. والكلام لها...

لا أبدا أطمان أنت دائما في البال.....

بدأت تغرد، وأنا أنصت لها، أجسد نظراتي في ملامحها، أتأملها من رأسها حتى أخمص قدميها، أرتشف من رضابيها حنانا، ومن صوتها سكونا خلت من قبلها السنن، كانت تتحدث عن ملابسات أمور شخصية شتى، تختص خططها ومشاريعها الخاصة بها.

أسهبت بحديثها؛ لامست برقة همساتها الفياضة جمر إحساسي. حينها قطعتُ وطراً من غربتي على واحة ثغرها المتدفق بالحيوية، رغبتُ أن الوك ثغري بفرات شفتيها، عبثا أحاول أن أنال من حسنها الأهيف، أو أشم عبير زهرها الفواح؛ الحواجز الأخلاقية منعتني من المجازفة. بعرفي تمنيت أن أنزع قناع الدين والمثل العليا من على وجهي، عسى أن تهدأ جوارحي التي باتت تغلي كبركان في أعماقي.

جمعتُ شتائل الأحلام ومضيتُ أبحر في قارب الشوق بين شواطئ عينيها، أختلج أمواج النهى بمجاذيف الشوق، قمم صماء تعترض وصلي، تنشر أشواك يأس في التواءات الطرق.

بت أراقب ملامح وجهها وأنا أسيرً خلف تأوهات شفتيها، لم أصمد كثيراً أمام عصف هواها الذي جرفني لشاطئ قلبها. أحسست بأني مشدوه البال، مشدودا إليها بكل جوارحي أكثر من أي وقت مضى.

استقرت عيني على ترترة الشفاه وهي تبعثر بشيق الحديث في باحة الصمتْ، حتى جرفتني نحو الدرك الأسفل من صرة الحقيقة، تلك التي كنت أنتظر الوصول إليها على مضض، حين طرقت أذني عبارة جئت أودعك!!!-

- ماذا!!!! تلتقين بي لتودعيني .... إلى أين؟

انتفضتُ من غفوة الخدر التي راغت بأوصالي، تطايرتْ الأحلام من رأسي كعصافير مفزوعة. انغمست صحوتي في أفيون الحيرة، حالة من السكر اجتاحتْ كياني، وهي تجر أذيال الخيبة خلفها... يا ترى أين المفر من جيش أحلامي؟ أي طرق سأسلك لمستقبل ضاع بين حوافر الزمن؟ إلى أين ستنتقل بنا تلك المراكب العاجزة، بعد أن هرأت صواريها وأشرعتها على حين غفلة؟ لا فردوس ولا أحلام ولا خيال.. دمرت القلاع بلمحة البصر.

قالت وفي عينيها تقبع حيرة واستيحاء بعد أن قرأت مشاعري تجاهها:.....

- إني آسفة!! أنْ أفاجئك بخبر خطوبتي! خطيبي ينتظر ترتيب مراسم العرس والسفر العاجل لفرنسا حيث ستكون الإقامة.

في الحقيقة جئت أدعوك للحضور؛ لأعرف خطيبي على أهم أصدقائي، أتمنى أن تلبي رغبتي، لم أدعو سوى المقربين مني فقط فلا تقتل رغبتي!

صاعقة أقحمت فؤادي، الغشاوة اسدلت نوافذ عينيّ، أنه الإعصار إذا كما توقعته، لكني لم أكن اعلم بأن الإعصار

مكنون في عينيها.

تـاه بصـري فـي خفايـا الظـلام، مثلمـا تعثـر الحـظ بحجـر الـزمن، فيمـا وجفـت نبضـات القلـب، تثاقـل لسـاني، تلعثمـت خانعـا، حزينـا، بكلمـات تكـاد لا تخـرج مـن فمـي إلا وهـي مرهقـة ذابلـة حـين قلـت لها: ....

- مبـروك.... حظـاً سـعيداً.... تأكـدي بـأني سأحضـر، شـاكرا دعوتك لي.
- شـكراً جـزيلاً أتمنـى لـك الموفقيـة ومسـتقبلا زاهـر. أتمنـى أن تتقبـل منـي هـذه السـاعة كهديـة لأعـز وأنبـل إنسـان عرفتـه، كان سراجاً منيراً أقتفي به سبلي.

(أخرجت من جيبها ساعة رجالية ماركة سوداء، قدمتها لي).

- شكراً لك سأحتفظ بها ما حييت.
- مع السلامة.

مثلمـا قالـت؛ كنـتُ سـراجاً لظـلام غربتهـا، هـا أنـا قـد نفـد زيتـي، فلـم أعـد أنيـر سـهدي ورجـائي. إذا أسـدل السـتار عـن الفصـل الأخيـر مـن مسـرحية الأحـلام الضـائعة، تلـك التـي شـمعت فصـولها بالشـك أمام إعصار محمل باليقين لا يبقي ولا يذر.

إذا جـاءت بالإعصـار، قذفتـه علـى حـين غفلـة بحجـري ثـم اختفـت. هكـذا إذا تنصـلت واختفـت خلـف حـواجز القـدر، مضـت إلى حيث السكون الأبدي.

بقيـت وحيـدا أداعـب السـاعة الجميلـة، أراقـب عقـارب الـزمن التي لدغتني، كأنها بساعتها قالت لي:....

لا تجعل لسواد الظن سلطانا على بياض أيامك. ولكن....

زمن بات يحاسب زمن
تاركة بحجري ساعتها شاهد عيان
أتبع رتم دقاتها حينا
وحينا تتبع دقات قلبي المدان

هي الحياة هكذا، تذكرة سفر
مرارة يقين وعصف وجدان.

ترى لماذا لم تخبرني بخطبتها مسبقا؟ ... لماذا لم تكن ترتدي خاتم خطوبة حين التقيتها أول مرة؟ لكانت وفرت على قلبي هذا العناء والعذاب.

يا ترى؛ هل كنتُ محطة عابرة في مشوار حياتها؟ تروم الـيّ متى ما ضاقت بها السبل؟ أم تصرفت ببراءة لإذكائي بواقع سحرها؟ ... تلك الأسئلة لا أملك لها أجوبة.

بقيت جالساً بمقعدي، أخيط فتق الأيام بمخيط الألم. الحقيقة الدامغة؛ لم تجد اهتماما صارخا وواضحاً من قبلي، أو بالأحرى لم أستطع أن استشعارها بإرهاصاتي ووجدي، لذا بنت تصرفها وفق علاقة آنية عابرة، كمعظم النساء.

مضتْ وبقيت عيناي تتتبع أثرها وهي تنزوي كشبح بين أغصان الأشجار.

حين إذ تذكرت قول المتنبي...

إنْ أقبلت كادت تقاد بشعرة.. وإنْ أدبرت كادت تقد السلاسلا.

متاهات الأقدار

لولا طلس لونه، وذيله المعقوف على ظهره، لقلت أنه ذئب يجوب أطراف محلتنا في ذلك المساء الهادئ من ليالي الصيف الجميلة.

الذئب غابس اللون، ذيله الطويل يمتد خلفه، يتحفى بحذر شديد، لا يدخل أنفه في معمعة تؤدي به إلى متاهات الأقدار. مشكلة الذئب؛ تفترسه الذئاب إذا ما خدش جلده، أو طعن نتيجة جبن أو غفلة، كما تفترس من وهنت قواه وتناحل كاهله أو أصابه العجز.

كان مرفوع الرأس، يمشي بخطوات واثقة، صوان أذنيه شاخصان، تتوجسان همس الشياطين، عيناه مبرقتان، تبصران خلف المدى. قوامه رشيق، ذو بنية قوية، تبرز مفاتن عضلاته المفتولة خلال حركاته الاستعراضية.

كان سريع البداهة، نافذ الصبر، قوي العزم، ينفث أنفاسا شرسة، جامحة. تتراءى صوره القاحلة في غبر شكله المرعب، ذات أسنان عاجية ولسان قرمزي لاهث.

أنه ذلك الوحش الكاسر، الكلب الاسود.

***

أستحوذ على شعب تفكيري، أستلب حصافة ذهني من أول وهلة تجابر بها أطراف محلتنا. فرس تتأنق بين حواضن الخيل، يتأنق برشاقة هرولته، كأنه يتقفز على أطراف أصابعه فوق بساط إسفنجي.

عيناه تتسمران أرجاء الطرق، تتغامزان بشغف، تومضان

نواصي الوجد، تُسبران مقصد غوره في حدوده الآنية. تشع من شدقيه غرائز عنف قوية، تستطير في الأفق مع لهاثه ونباح صوته الهادر، يستبيح الأماكن المنزوية بحثا عن الكلاب الضالة، السائبة.

كان لتواجده مع نثار الغسق وتحت ظل سكون عم أرجاء ذلك المساء الهادئ؛ أثر بارز في النفوس المرهفة، لهالة الوجل المثارة من حوله. غضب طافح في قسمات وجهه وفي حدقات عينيه المستطيرة.

بتلك السمات القسرية، كان يزحف بثقة خلف تطلعاته بين مسالك الدروب، بحثا عن الكلاب الخائرة.

رماه صبي بحجر، انتبرت مناكبه، استكان في موضعه، تطلع نحو الصبي بوجه عبوس، زجره بنعرة من نباحه ملؤها غضب وهو يتفرس بوجه الطفل، أبرمت في أوصاله خيوط الفزع، مضى الطفل هاربا لداره، تحفه جلاجل الخوف، دون أن يتبعه الكلب، كأنه قال له: أحذر، لا تعبث معي.

عاد بعدها لهرولته وهدوئه ورزنته يجوب اطراف المحلة.

لم يتوان طويلا في إسهاب بحثه عن فلول حيرته، الثقة كامنة في ذاته، هجستُ به كان يمضي خلف خيط دخان ينفث من عزمه، واضح للعيان، ذلك بقليل من المراقبة والتركيز.

قبل أن يجتاز المحلة؛ استنارة قبس حدقات عينيه المبحلقة كلبة صفراء في ثنايا المنعطفات، تخور بحدود الظلمة السائدة، كانت تبعثر في خشخاش قصب إحدى الحدائق.

رماها بسنارة حدقاته، تجاهرت خطاه، أسرع نحوها وهو يزمجر في الفضاء بهدير مزر تقشع له الأبدان، بشدة طرقه استحوذ عليها قبل أن تفل من قبضته، قيدها بشباك رهبته، أطبق عليها بجبروته. حاولت أن تفل، لكنه داهمها بطوفان الرعب، اجتث منها المبادرة، أودعها سجنه، جعلها تمرغ في التراب

تحت قدميه وهيَّ تئن، تولول بصوت خانع، وكأنها تود رجاءه، ليفك عنها قيدها، ناكصة رأسها، خائرة القوى.

وبعد وشوشة قصيرة دارت بينهما، مضى يهرول بزهوه وهي تتبعه بخطوات مهزوزة، يكتنف اساريرها الارتباك. بنفس مهتزة، ماضية نحو قدرها المجهول.. كانت قد تحاملت على نفسها، بعد أن سلبها الإرادة..

لماذا هجم عليها؟ بم هددها وحاورها؟ ما الهدف والغاية من ذلك؟..... سيل من الأسئلة تراكبت في ذهني، بت أبحث لها عن أجوبة من خلال تتبع ذلك الكلب عبر الزمن القادم.

*****

أجتاز الشارع الذي يتوسط المحلة، كامرة عيناه الثاقبة تتوجس صور الكلاب في المحيط، تلتقطهم أينما وجدو، تهجس بخياشيمه تجس رائحة الكلاب عبر الأثير.

التقطت هواجسه كلب يتبختر في ثنايا الأزقة، أسر له ومضة لاذعة من سنا عينيه، استكان في جناحه، تنحلت مجاميعه، تراخت قواه، ارتعشت أوصاله بمجرد سماع هديره المفزع وهو يجتاح الأفق. حاول أن يتنصل عن النداء المحيط به، هم بالهرب، تسابقت الخطى، وقبل أن ينزوي في مسالك الحدائق، أستحوذ عليه في وثبة خاطفة. محقه بإرادة جامحة، أسره بقيده، ومن ورائه الكلبة الصفراء تسنده.

همهم بصوتٍ ضابح مختنقٍ في رجاء وخنوع، حلت لحظات الاستسلام والتحاور والوسوسة، تهامس الكلبان كما سبق مع الكلبة الصفراء.

عاد بعدها لأدراجه يتبختر في سيره، يتبعه الكلبان بخذلان،

كان الكلب الثالث مهجنا يتميز بخوذة سوداء.

***

العجيب في أمره أنه لم يتعسف قط في تعامله، لم يحاول الانتقام من خصمه، على الرغم من أنه قادر على فعل ذلك. كان يأبى العنف، إلا في حالة عدم امتثال الخصم لطاعته، صور لماحة تعددت أطر الخيال والوصف، عِبرٌ تنهلُ منها، طاعة وحزم واحترام، برقت وسط صمت مطبق.

هدوء عصفَ بمحيط تلك الألفة المجتمعة خلف القوة والإرادة، مسرحية تراجيدية، يكتنف حوارها لفيف من الأسرار المبهمة، تفاقمت في نواحيها سرائر من العجب المبرزخ بين أقطاب المحاور.

ذلك الجبروت أضحى لغزا محيرا لي، هوة تتحرك في وسط الميدان، تتحكم بها فكرة صماء، لا تسفر عن وضوح الهدف أو الغاية. ذلك ما جعلني أتبع تحركات ذلك الكلب بحذر.

*****

تعتبر الكلاب من أذكى أنواع لحيوانات، أودع الله فيها ذكاء حادا وفراسة قوية، إذ لا بد من لغة تدار بين تلك الألفة التي تميزوا بها، لغة تفصح عن مضمون التحاور والتوجه. ذكاء ينظم هذا السلوك والفطنة نحو الهدف. لغة الايماءة، أو المحاورة التي تفتعلها الكلاب بأصواتهم، أو الإيحاءات والحركات والرقصات التي تعبر بها عن فعل ما.....الخ، هي لغة تخصهم كباقي الحيوانات.

ألم يكلم النبي سليمان عليه السلام الهدهد، والنملة، والجن. ألم يذكر الله عز وجل: بأنها أمم مثلنا؟ أن الوفاء، والذكاء، الذي

يتميز به الكلب عن سائر الحيوانات، جعله يكون حارسا أمينا، بحدود السلامة والوفاء، وبتقنية عالية. تلك الخاصية؛ خصه الله بها عن سائر الحيوانات، أنها ميزة، يتفوق بها عن البشر.

أذكر حادثة معينة حدثت أمام أعيني، عندما دهست عجلة مسرعة أحد كلبين خلال عبورهما الشارع العام، أنطلق الكلب الآخر خلف العجلة الداهسة ينبح بغضب عارم، ود الانتقام لصاحبه. كان يركض خلفها بجنون، لم يعر أية اهتمام لمخاطر السيارات الأخرى المسرعة إلى جانبه... بعد أن ولت العجلة بعيدا؛ عاد لصاحبه الذي كان قد نفق رمقه الأخير، صار يهمهم ويدور حول رأسه كالثكلى التي افتقدت شريك حياتها، الحيرة والحزن طاغ عليه وهو ينوح ويصرخ محاولا أن يعين صاحبه.. لو كان يعرف البكاء، لهمر دموعا من الحزن والوفاء تغرق وجه صاحبه.

***

على كل مضى الكلاب الثلاثة باتجاه نهر ديالى سالكين ممر السابلة، وعلى مزبلة قرب النهر التقيا بكلبين أبيضين ينبشان في خدود المزبلة، بحثا عن فضلات الطعام.

تلاحمت النظرات، تزاهرت الهواجس، تجانست المناغاة. وبدون أية معمعة أو فوضى، انتميا للمجموعة خلف القائد الأسود بكل امتنان، لحظات سادها تناغم عجيب من ألفة وتخاطر وتودد.

***

أتجه الكلاب الخمسة إلى وادي العوسج (وهو واد يشطر مدينة جلولاء لنصفين، يصب نهايته بنهر ديالى)، وهو المنفذ الوحيد لتجمع مياه الأمطار المنحدرة من التلول الشرقية، ليحميها من همجية الفيضانات، مشكلا في انحرافه قوسا منحدرا من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي كحرف(ر)

بخط الديواني للغة العربية .
من ملتقى مصبه بمحاذات الشمال الغربي تمتد حدود محلة الطليعة. فيما تكون الجهة المعاكسة من جهة الجنوب للوادي حدود محلة الوحدة. ترتبط المحلتان بشارع رئيسي يتقاطع مع قضبان السكك الحديدية المتجهة للعاصمة بغداد أمام مركز الشرطة الرئيسي للمدينة، والكائن ضمن حدود محلة الوحدة، فيما تحدانه من الجهة الشمالية محلة العروبة ودور الشهداء، ومن الجهة الشرقية محلة الجماهير.
هذه معالم جانبية لمدينة جلولاء.

خلال إطلالتهم على حافة الوادي من جانب محلة الطليعة، صادفوا كلبا مرقطا يتمرغ بالتراب خلف علبة فارغة، كان أسير هواه، لا تتعدى غايته أفق بطنه، وطأة الخوف استنزفت أساريره، فجارت به لمهاوي الوحدة.
دون أن ينتبه نبحوا عليه كمجموعة بنبرة واحدة، فز من غفلته، أنتفض على أطرافه، أسرع نحوهم يجري وكأنه كان ينتظر شارة منهم. كأنهم حملوا عن أكتافه أوزار الوحشة التي أثقلت كاهله، فأنظم للمجموعة بيسر وامتنان.
أصبح عدد الكلاب ستة كلاب، صار تجمعهم يجلب الأنظار، بل صار يبعث رهبة في قلوب كل من يلتقيهم في طريقه.
كل هذه الوقائع جرت في زمن لا يتجاوز النصف ساعة تقريبا، وفي مساحة بطول(300 – 400) م وعرض (100-200) م.
في تلك الأثناء بدأ أحساس غريب ينمو في فكري أشبه بزهرة اللوتس وهي تنمو بين شبكة من الأدغال والأشواك البرية، لتغر بجمالها عينا ضبحت من القرف الظرف المحيط بها. ومثلما أشم عبير تلك الزهرة عن بعد؛ صرت أشم رائحة

الخطـر عبـر إحساسـي وتوجسـي، تلـك التـي صـارت تنهـداتها تفيض أرقـا فـي منـازل أعمـاقي. وخوفـا مـن المجهـول المتقوقـع فـي موضـع الإحسـاس، تمسـكت بسـوط الحـذر لأقمـع بـه نقيـق الفـزع السـادي فـي أفـق الخيـال، لأحـيط تلـك المسـالك الصـماء والمنافـذ العتمة بصمت وترقب شديد.

امتـدت يـداي إلـى غصـن تـوت متـرام خـارج أسـوار إحـدى الحـدائق، تعلقـت بـه، تأرجحـت بـه، شـددت عليـه بقـوة حتـى أنفصـم من عقدة البرعم الذي أمتد من خلالها.

سـحبت الغصـن، صـرت أجلـي أوراقـه وأكشـط أدمتـه وأغصـانه الفرعيـة الملحقـة بـه، فيمـا ظلـت عينـاي تتـوجس أثـر الكـلاب وهـي تهـرول فـي منتهـى الأفـق، حتـى انـزوت فـي غـور الـوادي بـين متعطفاتـه شـرقا باتجـاه محلـة العروبـة والجمـاهير، متخذة من منحنيات الوادي حماية لها.

جلسـت وحيـدا علـى صـخرة رخـام أترقـب عـودة الكـلاب وفـي يـديَّ شـطب الغصـن أبعثـر بـه الحصـى، أنـش بـه الثـرى. الخـوف مـن المجهـول دعـاني أهيـئ ذاتـي للظـرف القـادم، ربمـا أكـون أنـا الضـحية، ربمـا هـذه العصـا سـتكون القـوة المرعبـة التـي يتجنبهـا الكـلاب وبـذلك أحفـظ نفسـي مـن خطـر لا أعـرف مقـداره وحجمـه- الفضول جعلني أتقبل التحدي والمواجهة ومتابعة أخبار الكلاب.

العصـا لمـن عصـا، و هـذه الكـلاب شـكلها لا يطمـئن، وراء كـل تجمـع غايـة وهـدف، قـد أكـون هـدفا لهـا وخاصـة لـيس لـديَّ مـا أحمـي بـه جسـدي سـوى عقلـي، والعقـل فـي لحظـات المواجهـة يتجـرد مـن صـفاته، حيـث يتوقـف عـن الأبـداع وخاصـة أذا مـا واجـه رعبا حقيقيا بحجم رعب الكلب الأسود.

أنـه لـيس كبـاقي الكـلاب، أراه أسـدا بهيئـة كلـب، فـي لحظـة الضـعف والخطـر الأكيـد ينشـل الفكـر، يصـاب بجلطـة لحظيـة، حتـى يتسـامى فيـه الـذهول والخـوف بصـيغة واحـدة، فحـين يستسـلم

التفكير للخوف؛ ينقل الشخص لواحة يأس واستسلام، ومنه إلى فراغ فكري غير محدود في عالم اللامبالاة إلا ما ندر.

صرت أهف بشطب العود، اضرب به الأرض، أجرب قواه، أحيانا أطرق علبة فارغة مرمية على جادة الطريق، فيمضي نقيرها مجلجلا سدم الصمت المترامي في الأفق، يذهب بعيدا عن هواجسي، صوت ينبئ بالوحشة، يزيد من غثاثة الروع المحيط بي.. وحين يرتد الصدى يترك رنينا يتسلق هاجس الخيال، فأنشغل بإسهاب قصص شجية عن تلك المجموعة من الكلاب السائبة.

قصص من العالم الآخر ركبتْ مركب الخيال.

.... ماذا لو تمكن الكلب من الطيران؛ وتمادى في بحثه عن اللص المحتفظ بقلادة الأميرة، والمتخفي خلف أسوار شاهقة أو بين الأحراش، حينها ينقض عليه رغم انزوائه. حينها سيفترسه على غفلة من أمره، فالكلب لن يغفل عن رائحة الذهب الأذكى، ولا عن رائحة الأميرة المتعلقة بالعقد، فللشم ميزة ترفع من قدرة الكلاب على متابعة وملاحقة المجرمين وأن اختفوا.

ماست شواطئ ذهني أفكارا أبعدتني عن صخب الحدث، بحرت في المعقول واللامعقول منها خلف أمور شتى، ثم عادت بي مجددا لأنشغل بقصص الكلاب، وكأني على يقين من عودتهم ثانية لميدان المسرح كالطيور المهاجرة.

...يا ترى؛ ماذا لو استطاع هذا الكلب الرمادي من أن يجمع كلاب المدينة كلها؟.... حتما أنها كثيرة جدا... يوظفها تحت إرادته في أُطر ونظمٍ صارمة، يملي عليها توجيهاته وتعليماته ثم يوضبها تحت إدارته، يلقنها تدريبات عن فنون القتال، يشحذها من منهل قوته وشراسته، ثم يجعل نفسه ملكا عليها.

أكيد ستتوسع أهدافهم، سيهاجمون قطاعات المدينة كلها

ليحتلوها الواحدة تلو الأخرى، حتى يدب الرعب في نفوس الناس، فيهجروها بأسرها، فتغدوا المدينة مملكة كلاب الأولى من نوعها في العالم، بذلك تدخل ضمن موسوعة جنيس للأرقام القياسية.

مملكة لها أحكامها وقوانينها وقواعدها الخاصة بها، لها حراسها وأمنائها، تجوب أزقتها وتحرس طرقاتها، لها شرطة مرور وتحري وتحقيق وأجهزة مخابرات----الخ. كل يعمل من جانبه.... وإذا ما دخل بشر في مملكتهم يمزقونه أربا أربا.

هم في إدارتهم لشؤونهم سيكونون أفضل من البشر في إدارة أنفسهم، على الأقل من الناحية الأمنية، فلا يتاجروا بالتفاضل على حساب الطائفية، أو القومية، أو الدين، أو الأحزاب المتنفذة أو اللون والعنصرية.

لن يقصى كلبا من عمله، لا يعدم كلبا لسبب سياسي أو طائفي، لا يهجر كلبا أو ينفى لعداء شخصي أو مذهبي، لا انتماءات حزبية، الكل لهم حقوق وواجبات في خدمة المجتمع الكلبي.

ألم يسلبوا فلسطين بتجمعات استيطانية صغيرة، كبرت فيما بعد وكونت سرطانا في جسد العرب؟....

أوه .... أين ذهبت في لغط اسهابي . حقا أنها مضحكة.

أحيانا السهو ينقلك لواحة فكرية غنية أو فسيفسائية، وأحيانا لا تخرج منها إلا والهم كبل يديك ورجليك بقيود خارجة عن إرادتك.

وأنا في نشوة افكاري الشاردة، واحداقي منصبة في متاهات الوادي باتجاه محطة القطارات، وبالذات في هذا التنين المعدني الذي ترتعد الجدران من زئيره الموحش وهو يمضي في سراط

مستقيم، دون أن يحيد عن مساره قيد شعرة، دون أن يبالي بمن حوله وما خلفه من أمور عالقة، يخدم الجميع دون أن ينتظر ثناء أحد ما، دون أن يتجاوز على حقوق الناس أو على توجهاتهم، أنه جبار في قوته وخدمته وجبروته.

أحيانا أسأل نفسي؛ لِمَ لا يكون الأنسان مستقيما في حياته كهذا التنين، يزرع الحب ويخدم الجميع ولا ينم في أعراض الناس ولا في خصوصياتهم.

***

وأنا منشغل بإسهاب الفكر وبشعب الذهن المشظة وبالذات في ذلك التنين القابع خلفي، تحت قبعة سكون الظلمة المسحوبة على الأرجاء كجبل شامخ، عملاق، وخاصة أنه يتراءى عن بعد في حلكة داكنة أكثر سوادا ودماسة من المحيط الذي يألفه، ذلك لمن يدقق النظر فيه، السكون يرسم على هيكله شكلا مرعبا، يوجل بالفزع.

في تلك الأثناء، تعالى غبار كثيف من جانب سكة الحديد الشمالية الفاصلة بين محلتي العروبة والطليعة، كانت الرؤيا شبه معدمة، فلم أميز الصورة جيدا، لبعد المسافة وكلكلة ظلال الليل، وذلك بعد أن زحف الغسق نحو وهدة العتمة، مفترشا أجنحته على بساط الأرض المميدة.

في بادئ الأمر لم أركن إلى الحقيقة الأكيدة، اعتقدت قطيع غنم يعبر المسار إلى الجانب الثاني. لكن بعد برهة من الزمن اختلفت المسألة في حسمها تماما، لا توجد أغنام تسير بهذه السرعة تحت جنح الظلام. الأصوات خاقه، مبهمة، تجمع وتيرها على شكل نباح ضابح، شق سكون الليل، غيرت من مسلة توقعي، بات الأمر يقلق ظني، الأصوات بددت فراستي، جعلت الأمور في نصابها دون ريبة.

خلال اقترابهم تمكنت من أحصاء عددهم... كانوا عشرة كلاب أو يزيدون، يوسطهم قائدهم الأسود. من خلال ترتيبهم المتناسق، تستطيع تحدد قَدم انتماء كلا منهم للمجموعة، أشبه بحضيرة عسكرية تلفت الأنظار في استعراضها. من اليمين الكلبة الصفراء ومن اليسار ذات الخوذة السوداء ومن خلفهم الكلبان الأبيضان ومن ثم البقية. طاعة وحزم ونظام والتزام، كثيرا ما يفتقر لها البشر.

خلال تسللهم المنحدر بين المحطة ومحلة الطليعة.. صادفتهم دجاجتان تسرحان في بساط الحشائش، تحت ضوء مصباح كهربائي معلق في قمة عمود منحني الرأس، قرب مدرج (رمبة) السكك لتحميل البضائع الثقيلة التابعة. في السهل الممتد نحو الوادي.

كانت الساعة تشير إلى ما بعد الغروب بساعة من ليالي الصيف الدافئة، الشوارع لازالت عامرة بناسها.

وقبل أن تستفيق الدجاجتان من الغفلة التي تحيط بهما، وقبل أن يسعفهم بساط الريح ويستغثن أنفسهن، انقضوا عليهنَّ بلمحة البصر، صاغوهنَّ لقمة سائغة، دون أن تجدي قوقتهنَّ نفعا. اختفيتا من الوجود بلمح البصر، أصبحتا في خبر كان، شفق على ذكراهن الريش المتناثر في الأرجاء، دلالة على وقوع الجريمة.

كانتا أشبه بعربون صداقة بعد جولة عناء دامت اكثر من ساعة على تجمعهم وتجوالهم بين أزقة المحلات ودروب الطرق.

***

لقد سمعنا بعصابة اللصوص وقطاع الطرق...الخ. هؤلاء الذين يبتزون الضعفاء وعابري السبيل، لكن أن تكون للكلاب عصابة تجيش الرعب بين أوصال الناس، هذا ما لم يخطر على

البال أطلاقا، لأنها ستكون أشد ضراوة وقسوة على الكائنات الحية دون تفريق.

خلال تماديهم في هرولتهم باتجاه الوادي، توالت أمامهم قطيع من البقر، بحدود سبعة بقرات تمشي رتلا باتجاه مرائبها.

علما أن هذه الأبقار معتادة على سلك طرقها كل يوم مرتين؛ ذهابا وإيابا دون راع أو متابعة أحد من الرعية. حيث تخرج من أوكارها في محلة الوحدة صباحا إلى حيث الكلأ المحاذي للنهر في حوض محلة الطليعة، ثم تؤب مساءً باتجاه محلة الوحدة لحظائرها سالكة ذات الطرق.

وقد تعود متأخرة ولكن أصحابها ليسوا قلقين عليها، وكأنَّ هذه الحيوانات مبرمجة بالساعة والدقيقة. كما أنها معروفة للجميع فلا تجد من يعترضها أو يحيدها عن مسارها.

هذه البقرات ما أن سمعن بنباح الكلاب منبثة خلفها، تسارعت خطواتها مع دباب الخوف والوجل والهلع في أوصالها. هرعت تجمع شتاتها، تشتت جمعها في أطراف شتى، أضحت مترامية الأبعاد، مما شجع الكلاب على زيادة الغلة والشراسة خلفها.

شاءت الصدفة أن يملص القطيع من شباك الكلاب إلا بقرة واحدة، تخلفت كثيرا، لفرط سمنها وكبر ضرعها. بقيت تخور في بطاحها من غير أن تجد معونة أو مساعدة، لا تستطيع أن تعين نفسها على الهرب أو تتملص من قبضة الكلاب المخيفة.

تكالب عليها الكلاب، صارت فريسة سهلة بين أسنانها ومخالب القدر، تنطح برأسها، ترفس بقدميها دون جدوى. لا تستطع إزاحة الشراسة التي علقتْ بها، بقيت تجاهد في سعيها وخوارها دون جدوى، لا يميسها خيط رجاء لينتشلها من واقعها المؤلم، ولا من يهتم بها ويستمع لشرود خوارها.

داهما الخطر من كل حدب وصوب، أطبق عليها شباك

المـوت، قفـز الكلـب الأسـود علـى ظهرهـا، كأنـه أطلـق إشـارة الهجـوم لفصـيله. عضـتها الكلبـة الصـفراء مـن سـاقها، فيمـا البقـرة تَجِدُ فـي محاولـة الخـروج مـن بـراثن المـوت المحـيط بهـا، انقضـت علـى رقبتهـا ذات الخـوذة السـوداء، أصـبح حالهـا يرثـى لهـا، نـار أضـرمت فـي حزمـةٍ حطـب، طقطقـت الخـوف تحاصـرها، صـارت تستغيث وهي تصيخ منافذ السمع.

مـع معاناتهـا، اسـتطاعت أن تجـر جسـدها الأجـدب باتجـاه مآربها لتقترب قليلا من تقاطع الشارع العام مع سكة الحديد، في وقت كان الصمت يعم أرجاء المدينة مع حلول العتمة، صارت على بعد خطوات معدودة من مركز الشرطة، رغم الجراح التي تكلل بها جسدها الأجدب.

وقبـل أن تُفْتَـرَسْ ويـدوي صـوت المـوت عاليـا، دوت إطلاقـة ناريـة فـي الفضـاء، شـرخت السـكون فـي أعمـاق الأفـق، هـزت أسـارير الكـلاب، جعلـتهم يـدورون فـي هلـع وحيـرة وانكسـار. سـقطت الكلبـة الصـفراء تـئن فـي جـوف الصـمت المشـاع، تتلـوى بصـوت هـزيم وهـي تـدور حـول نفسـها كمصـراع خشـبي؛ حتـى خفـت نبراتهـا واسـتكانت أنفاسـها سـريعا علـى الرصـيف. خمـدت جثـة هامـدة تحـت عمـود كهربـاء. انفضـت المجموعـة المهاجمـة عـن البقـرة المفزوعـة، دوت إطلاقـة أُخـرى، سـقط علـى أثرهـا الكلـب الأسـود الـذي بـات يتلـوى، يولـول زاحفـا بحركـات لولبيـة حتـى اسـتكان فـي زاويـة مـن ركـن الشـارع، كتمـا أنفاسـه فـي صدره.

تشـتت الكـلاب، تـبعهم صـدى الرصـاص يمـزق أشـلاءهم الواحـد تلـو الأخـر إربـا إربـا، تنـاثر أجسـادهم هنـا وهنـاك فـي منحنيـات الطـرق.. تجمـع النـاس علـى أثـر ضـجيج الإطلاقـات، ونبـاح الكـلاب المسـعورة، يبصـرون حـال البقـرة التـي أُنهكـت قواهـا وهـي فـي وضـع مـزري، فيمـا تبعثـرت الكـلاب سـكرى،

متخبطة في وحل الهزيمة.

كان من حسن حظ البقرة أنتباه شرطي الحراسة على خوار البقرة الفجِعة ونباح الكلاب المفزعة، فاستطاع أن يمد بعمر البقرة قبلَ أن يقصف عمرها تكون وليمة دسمة لتلك الكلاب جائعة.

نهضت البقرة المفجوعة، والهلع ينزف من مواطن الجروح التي المخدوشة في جسدها. طنين الرصاص نخر أذنيها. على فجاعة الفزع نعر خوارها خلف خوار أقرانها، وهي تجر جسدا أجدبا بخطوات عرجاء، تاركة خلفها كتل الروث تتساقط، صانعة أقراص دائرية على مسرب الطريق، تعبيرا عن حجم الفزع الذي انهك أحشائها والرعب الذي خزق أوصالها.

على أثر الحدث المرعب، والذي كان من الممكن أن يكون ضحيته بشرا ما، تم إبادة الكلاب السائبة في أرجاء المدينة من قبل دائرة الصحة.

نبع الحنان

يحف خطواتها الارتباك وهي تجري مهزوزة الأسارير بين أروقة الدار، تتبع إيماءة حسها الرهيفة، بخطوات قدميها المتعثرة جرت خلف وهم أغشاها، رامت اجتثاث نجواها من فك حيرة صماء أسرت هواجسها. تهجس بها قمرا يتهادى بين الغيوم، تتهادى بين جدران الوهن، تتأمل نافذة مقمرة.

استحوذت على شعب تفكيري وهي تهفو ببراءة خلف هاجس ظن أحاط بها، أحيانا تستأثر بكفاف الثوب، فتنكب على وجهها، فينهمر بكاؤها سيلا من النشيج والآهات، تشدو بشجو ملئه شقاء، تستغيث، تنهض، تجد ذاتها مقيدة بسلاسل الأنين، حمامة تنوح أسفا على وحدتها وغربتها.

صور خريفية راغت في وجهها، دموع ترقرقت في مقلتيها، أنسلت على الوجنتين الموردتين، استباحت جمّار الخد كلآلئ البرد، كندى الصبح وهي تغشي تويج الورود البهيجة... لم تقاوم جلدها وهي تشهق برنيم صوتها النغم:..

- ماما ماما....ماما..

لا تدري أية وجهة تستقل ولأية جهة تمضي، فكرها قيد حيرة شلت قدراتها، أسرت هواجسها لفيض حضن أمها.

كدمية الكترونية تدور في أرجاء الصالة، تبحث عن ثلمة عطف، عن رمق أمل يسعف قلبها المُلَكْ بدبق الحزن.

تمشي وقناديل أوصافها تشع نوراً، العطر يفوح من عناب الثغر، يمتد زاكيا مع قصيد قوامها الرشيق. نور يشع من بريق عينيها السوداوين، كوهج مصباح يتلألأ في فضاء العتمة.

شعرها كرستال لامع منسل على كتفيها، قلنسوتها شريط فضي يختلج بهاء النور. شفتها تويج ورقتين جورية، تحيطان ميسم قوادم أسنانِها البراقة.

وهي تخبب بمشيها، كأنها زهرة ترتجي دفء الشمس. مرتدية ثوبٍ مزركشٍ يصدح بألوان قزحية. يوسط خصرها حزام فضي ليتوافق سحراً مع شريط قلنسوتها ولون حذائها الناصع.

***

لم أتمالك نفسي أمام حيرتها الجامحة وهي تبدو بطوفانها الواهف كشعلة نورانية منكسرة بين الرجاء والوهم. هجست بمشاعري تلفظ حمم عواطفي على خديها، امتدت ذراعي بشغف إلى إبطيها، ضممتها إلى صدري بدفء وحنان الأبوة. قبلتها، داعبتها، مسحت دموعها لأقوض حيرتها، همست بأذنيها قائلا:....

- يا إمارة... يا حبيبتي ...لا تبكي... ماما ستجلب لك زجاجة الحليب.... هيا كفي بكاء... هيا نمضي إليها....

خفت من روعها ومن حدة بكائها، لكنها ظلت تتلفت في الاتجاهات بعينيها الساحرتين، تبحث عن وسادة حب وأمان، عن نغمة حبور تكش حيرتها، عن كأس عطف يعينها على نأييها، عن نبع الحنان، عن رمق أمان، عن الطيبة المباحة، عن ماما الحبيبة.

على الرغم من أني حملتها على صدري؛ إلا أنها بقيت في ثنيها تكلُ من الشك، لحظات ثقيلة جعلتها تعاني من طي الحقيقة وهي تدور بعينيها الدمعتان يمينا وشمالا. ألهبت زغب الفؤاد، زادت من دفق نبضه. هجستْ بتأخر والدتها، ما جعلها تنفض شقاء الصبر كدخان أنين، اجتاحت بها مشاعري

الراكدة، كبلتني بفيض همها وغمامها.

رعد أهاب نجيم إحساسي الضانِك بموجات نحيبها، بدت الرتابة تطفح في نصاب الأمور، كأنّ الأشياء تسامت في رقائق الحياة، أضحى البيت قفارا من وجهة نظري، شعرت بالأرض توقفت عن الدوران في حدود الصمت والجمود القابع في وجهها.

كأنما أستنفد الزمن دقائقه، تاه الفكر في مبدأ الخطوة، ظلَّ القدر مراكب السفر، أضحى الوضع مرعبا، يجتث الألفة والسكون من الوجود، من العلاقة الآنية بيني وبينها.

جعلتني أشعر بتقصيري تجاهها، كاد قلبي المتدثر بآلامه المسهبة يتوقف، لولا أن يشع هلال أمها في الأفق، لحظات عجاف، غرست مخلب النار في عنقي، كدت أختنق، لولا صدح أمها المتهادي في الأفق، لتشع أمانا عبر أثير صوتها الدافئ، الذي أغشى قلبها كنسمة صبح باردة.

مع سماع صوتها دب فرح في ربوعها، فرشت الابتسامة على ثغرها، طاقة كهربائية أسرجت السرور في قلبها، ألهمتها بهجة وفرحا قوضت حيرتها.

ما أن بزغ هلال أمها من خلف الستار؛ حتى صارت تناجيها بروحها المرحة، تسمعها هدلها وغريد مناغاتها، أراقت الود والحنان في باحة صبرها، أحسستها بلين عاطفتها وأشواقها وهي تناديها:.....

- حبيبتي إمارة لم تبكين؟ حـ آتيك بزجاجة الحليب..

صارت تضحك، أختلط شجو بكائها بقهقهتها وشهقاتها ومناغاتها، صارت تهتز في حضني وبين ذراعيّ كالنابض الحلزوني، فرحة جذلى كأفراخ الحمام، تكتكت، تزقزق، تلألأ سراج وجهها بسعادة سرتها.

كنتُ قد استسلمتُ للقدر الذي قيدني، أهجس بها طعنتني

بنصل براءتها في صميم المشاعر، ألمّ بيَّ الجرح، نزف غيرة في محبتي وخجلا في وجاهتي، تحسست ذاتي منكسرة، سحيقة في هيبتي وأبوتي، جعلتني اتأفف وخز الألم وهو يسري في عروقي الجافة كسيل من الندم، مزقت صور الحماقة المعلقة على جدران كبريائي.

أهجس بالطبيعة فرضت سحرها على لون إحساسي، جعلتني أتراجع عن حالة التزمت والتشبث بالسلوك العابث، جعلتني أواجه الأسئلة التي طرحتها على ذاتي، أبحث عن أجوبة لها في طابع قراراتي.

حينها أحسست بحقيقة حجمي وقباحة شكلي، أمام تلك البراءة التي حجمتْ هيبتي، أوحت لي صغيرتي بان الأنسان لا يحتاج إلى قوة لينتصر، ها أنا أُهزم أمام براءتها، تلك العصا الرقيقة الطرية التي هفت بها على مكامن الألم، تركت أثراً في النفس والذاكرة، ستمضي معي حيث ما حييتْ.

أنها إرادة الله، الجزاء بقدر العمل، فعادل الكيل بالميزان، نضح كل إناء بما فيه، أفرزت الحياة الحسابية حلولا جذرية للحالة المستعصية، جادت بثقالها، لتنبثق سعادة واقعية مقابل زيف كان يساورني ويغشيني.

سعادة لابد من تفعيل أسسها، بخلافها ستبدو مخارج الحياة ضيقة في أطرها الرمزية المباحة. إذا لابد من أن أتبع سياسة جديدة اتجاه صغيرتي وأسرتي، تلك التي مدى بصرها لا يتعدى أطر حدودي، تلك التي تتذرع إلى الله أن أصون أقداري في حدودها الأنية.

جاد سوط العقاب، لابتعادي عن حدود الأسرة، لانشغالي بأمور ليست ذا أهمية، أمور تافهة كانت قد شغلتني عن أسرتي، أنستني ذاتي وقدري.

تلك الأسباب؛ جعلت العلاقة واهية بيني وبين صغيرتي، لم

أكـن أبصـر لـون القـدر الفـاقع تحـت قـدمي، إلا بعـد أن بعثـرت صـغيرتي بعصـا البـراءة جمـرة القطيعـة، لتلسـعني بهـا، فـانتبرت مشـاعري، تبـددتْ الغشـاوة عـن نافـذة الصـبر قبـل انـزواء شـمس الحب في بطون الغسق.

كـان لابـد مـن صـدمة تهزنـي؛ تعصـف بـأوراق الحيـرة المصـفرة، قبـل أن تعصـف الـريح السـخط بخيمـة السـعادة، لتحـرق ببراءتهـا جوانـب التقصـير عـن بكـرة أبيهـا، بـددت الـوهم والزيـف عـن حـدود الأسـرة، لتفـيض سـلال الشـوق بالأمـل والسـعادة مـن جديد.

بعـد تلـك الحقبـة التـي انقشـعت وولـتْ؛ تغيـر الحـال، وبالـذات مـع صـغيرتي التـي كنـت نـادراً مـا ألاطفهـا وأداعبهـا، خاصـة خـلال عـودتي المتـأخرة للبيـت وأنـا مرهـق بالكلـل والملـل، كـان الـروتين قـد سـف جـدول أعمـالي اليوميـة برفقـة رفـاق السـوء، كـان الإحسـاس مكفـوف البصـر، المشـاعر مقيـدة، المحبـة مبعثـرة بـين كوات الخجل وأنا اتسكع خلف بنات الهوى والنوادي الليلة.

تلـك كانـت مهـازل أبـوتي، اصـطبغتُ بهـا عبـر تلـك المرحلـة المريضـة مـن العمـر، اسـتطاعت صـغيرتي أن تنسـفها ببراءتهـا، أن تمحيها عن جادة الطرق.

تلـك غيمـة انقشـعت لحتفهـا، انتبـرت مخالـب الغيـرة تفتـك بخـدود الـوهن، أفرتـت ينـابيع الأبـوة فـي سـهول الأسـرة، لتسـقي بزلالها تلك العروق الظامئة.

وأنـا فـي سـرحاني وإسـهابي الفكـري، أبحـث فيهـا عـن لغـز الحقيقـة والسـعادة المغيبـة... كانـت صـغيرتي قـد انسـلتت مـن بـين ذراعـي، كسـمكة تنتشـل ذاتهـا؛ متشـبثة برقبـة أمهـا. هفـت برغبـة جامحـة مرتميـة بأحضـانها، صـارت تشـم رائحتهـا، تلعـق صدرها، كأنها عطشة لنبع الحب والحنان.

اسـتكان غضـبها كسـكون العاصـفة، انقطـع أنينهـا كانقطـاع

الـوتر، طفـح الابتسـام يثـري وجههـا، اسـتعادت هـدوئها، كـوردة الصبح محمرة الوجنتين تزين صدر أمها.
بعـد أن ركبـت موجـة الأمـان؛ أغمضـت عينيهـا، لتنـام قريـرة عـين فـي رحـاب والـدتها، نامـت وتركـت عصـف الغـام تتفجـر بأحضـاني، لتعيـدني إلـى ركنـي الأول، قبـل أن تـزغ قـدمي فـي وحل التيه والانا.
بسلوكها وقلقها كانت قد غرست الحكمة في ذهني، غسلت بدني عـن كـل رجـس رجـيم، ألهمتنـي أسـرار السـعادة الحقيقيـة، تلـك التـي كـدت أنسـى شـكلها ولونهـا، جعلتنـي أشـعر بقيمـة ذاتـي كـأب، جعلتنـي أعـرف جيـداً أيـن أضـع خطـوتي القادمـة؛ إنهـا إرادة الله، قبـل أن تكـون إرادة صـغيرتي، لقـد أصـلحت شـأني وذاتـي، ((وَأَمَّـا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)) صدق الله العظيم.
فأنها حقا نعمة لم أكن منتبها عليها.

فرصة هدف

لم يمنعني حجمي الصغير ونحول جسدي من أن أَدخُلْ أنفي في معترك لعبة كرة القدم، فتلك الأمنية لازمتني منذ حداثة سني، بدأت تنمو وتورق جدلا في صمت؛ حتى أخضرت أغصان الرغبة تحت لسعة شمس الصبر.
كثيرة هي المرات التي حاولت أن اشارك بها أولاد محلتنا أهواءهم ورغباتهم واهتماماتهم دون جدوى؛ رفضهم القاطع والمستمر لي حال دون ذلك؛ حتى وصلت المسلة لحالة العند والتعقيد، لقد نصبوا بيني وبينهم حاجزا من الرفض لُوِنَ بالكراهية. أضحى سلوكهم المشين مانعا لتنمية موهبتي، بحجة نحول الجسد وضعف البدن..
بقيد العند حالوا بيني وبين الرغبة، جعلوها هشيما تحت مداسهم، ولهبا في أروقة الحس، تتأجج بشكل من أشكال الاصرار والتحدي.
هكذا وجدت ذاتي في ضياع، تتمرغ في وحل التيه والظن، القيد كبل خطواتي الوئيدة، حال دون تمكني من تسلق سلم الألق والنجاح.
سلوكهم المشين جعلني أشعر بهشاشة ثقتي بذاتي، بضعف ويأس أمام قدراتي الفتية، بتُ أعيش على جمر الحسرة والوحدة، حتى أصبتُ بدوار التوحد.. في الوقت ذاته زدتُ هوسا وولعا باللعبة؛ زدت ارتباكا نحو ذاتي الأسيرة، كأنّ كياني وتكويني الخلقي أضحيا مانعا طبيعيا يحيل بين هوسي وأحلامي، وكأن الحلم صار مجرد وهم وهباء في مهب الريح.

أصبحت علاقتي مع الكارت الأحمر الذي يرفعه زملائي بوجهي علاقة صداقة وواقع حال، أهجس فيه شيء من الحنق والقساوة، يحيل صبري إلى مرارة ذائبة في كأس أمنياتي، لا يستشعر بمذاقها غيري.
تلك الحالة لازمتني زمنا، جعلتْ من لحظة الفرح وغف حزن يحيط محجر العين، نزعت البهجة من القلب، جعلتني أتنازل عن صرح كبريائي، راضيا بصيغة الانكسار والتخفي والرضوخ لقرار الجماعة.
أحيانا كنتُ أجهش بالبكاء، فأنزوي بعيدا عن أنظار وتعليقات الزملاء السخيفة. كطفلٍ مفتقدٍ دميته، يتملكني يأس ووجلٌ، أبقى منزويا في جحري، صامتاً في قرارة نفسي، أجرع مرارة الصبر.
تلك الوقائع ما برحت صارت تغز مشاعري بألسنة نار تكويني، في الوقت الذي به تحول انكساري لقوة، لدافع وإلهام لأقحم ذاتي في ميدان الكرة بعيدا عن جدل المجموعة، بتُ أخطط بفكر متقد، بعزم يقارع عزمهم، بحثا عن بصمة إبداع مقرونة باسمي.
بت أبحث عن ما يغيثني، ما يجعلني أبدأ الخطوة قبل أن تهدأ فورة أحزاني. أن أرسم خارطة طريق واضحة المعالم نحو أهداف أكبر من تلك التي رجوتها في خاطري، غاويا سلم الشهرة، متبعا الغاية والشخصية.... حالة صرت ألتمسها، أراها تتراقص أمام أعين خيلائي كزهرة توليب مغنجة بالشفق والألق، رغم الغشاوة التي كانت تغشي ثقتي بذاتي.
الحالة دغدغت عزيمتي، جردتني من شبح الخمول، أوقدت في داخلي شموع أمل، دهنتها برغاء الصبر، أوقدتُها بالمثابرة والعمل الجاد، بعيدا عن أنظار من يجحف بقدراتي ويقلل من شأني ويحكم على إمكاناتي الفتية بالفشل.

تلك الأمنية التي لم أجد من يؤازرني عليها سوى والدي الذي منحني معطف عطفه وحنانه، على الرغم من أنه شخصيا كان يدرك محدودية إمكاناتي الفنية وقدراتي الجسدية أسوة بزملائي، إلا أنه كان يجاري رغباتي دون أن يضعف من عزيمتي، رغم عدم قناعته الداخلية بنجاح محاولاتي..

بدأت اشاهد المباريات الدوري الأوربي عبر التلفاز، أتابع برامج السوشيل ميديا وبالذات اليوتيوب، لأستمتع بتكرار الحركة الفنية التي يتفنن بها المهاريون من اللاعبين، لأحفظها عن ظهر قلب. في اليوم التالي أحاول تطبيقها على قدر المستطاع بذات المعايير، اتعامل معها بتقليد أعمى، لأغرز المهارة في مرونة القدم... هكذا نما هذا الولع في خاطري وأصبح من أولويات عزفي واهتماماتي.

شيئا فشيئا" نمت تلك القدرات في قدميَّ، صرت أسندها بالتمرين المكثف لأثبات المهارة، زدت ثقة بالنفس، ارتفعت أشرعة التحدي لدرجة الوله، أصبحتُ أكثر قدرة وتحكما وولعا في الكرة، صرت أكتشف السر المكنون بطبيعة الكرة ودورانها، ما فتئ العشق تماشى مع خفتها ورقتها.

بمرور الزمن وكثافة التدريب أدركتْ الكرة لغز المهارة في ذهن القدم، تطورت العلاقة بيني وبين الكرة، دخلت مجال القدرة الفنية والتكتيكية، أحسست بألفة التناغم بين القدم وسطح الكرة، شعرت بلغة الحوار ترتقي بينهما لضفة الإعجاب والتلاقي، نما ذلك الشعور في القدم مع عشق الكرة؛ حتى صارت الكرة بذاتها تعشق القدم، تتناغم مع المهارة والمرونة المغروزة بها. غدت الألفة على أشدها، وهيَّ تستوعب وتتفهم

مقاصد الذهن، كما صرتُ أتوقع نوايا دحرجتها ومقاصدها.
هكذا تحولت تلك العلاقة بيني وبين الكرة من مجرد ألفة سطحية إلى صداقة حميمية، لعشق سرمدي،، لولع هجيني، جمع عشقي بها كعشق الليل للقمر....
ذلك الولع شغل تفكيري، جعلني أنغمس في إرهاصات عزف الكرة، أذوب كفكرة في محاكاتها ودحرجتها وطبطبتها، صارتْ تنجذب إليَّ بنهم، تهيم بلسعة القدم، تلتصق به ويلتصق بها، أدحرجها برواء الفكر وعطف النظر، أداعبها بحنان، أصبحتْ سليلة العقل والذات، زرعت الثقة بذاتي، تيقنتُ من قدراتي، صرتُ أول المعجبين بإمكاناتي وتكهناتي.

هذه الاهتمامات الكروية أنستني جانبا مهما من اهتماماتي المدرسية، بل أصبحتُ أقل نشاطاً وعلما مما كنت عليه فيما سبق، أقل درجات عن أقراني. دنى مستواي الدراسي إلى حيث جزل قناعة الاستاذة بقدراتي العقلية، مما دعا إدارة المدرسة إلى توجيه عقوبة التنبيه المتكررة إليَّ، أحيانا تصل تنبيهاتهم لدرجة التوبيخ والتنكيل والصرامة، التي تجيز لهم طردي من المدرسة أو منحي فضاء استراحة في المرحلة.
كل هذا لم يثنيني عن هدفي، لم يمنعني عن معترك الكرة، بل واصلت تحدي الظرف، رسمتُ الهدف ومنحنياته على صفحات الذهن، تحسست إمكاناتي العقلية والإذكاء بفن اللعبة حتى تجاوزت إمكانات زملائي، رغم عدم تجربة ذاتي في ميدان التحدي.

لم أعد الأيام والشهور التي قضيتها بالتمرين والتدريب، لكنها فترة ليست بالقصيرة، تدربتُ خلالها على فترتي الصباح والمساء. كل ما أتذكره هو إصراري الوحيد على تجاوز المحنة

وأثبات الذات والتمسك بالنجاح، مبذلا قصاري الجهد لأدراك الغاية المنشودة....

ما كان ينقصني؛ هو إبراز قدراتي الفنية في محك حقيقي، في مضمار حقيقي، لأثبت مسامير الثقة بلوح القدر. صرتُ أبحث عن ضالتي والفرص في قوائم الحظ وعيون المدربين. أتعنى للأماكن البعيدة، لأرفع عن نفسي قيد الوحدة، متبعا الومضة في عيون الزملاء ولسان الجمهور، متأملا أن أشرك ذاتي بأي فريق؛ حتى لو كان متذيلا قائمة الترتيب.

بل أني ذهبت إلى أبعد من ذلك بعيدا عن اللياقة واللباقة الرياضية، حين بحثت عن وساطة ما تنتشلني من وحل الهوس والتمني، بحثت عن الفرص بين أعماق الرغبة وأوجه الحقيقة التي اترجاها. طرقت أبواب الغرباء والمعنيين الذين لا تجمعني بهم أية صلة أو وشائج معرفة مسبقة.

ظل الفشل يناصب الحظ، ربما لنحول العضل في الساق وقصر القامة دور في عدم قناعة المدربين بإمكاناتي. لكن؛ لابد من مغامرة تسند قدراتي الفنية وتظهرها في المحك.

لم تطول فترة الانتظار المرجوة طويلا؛ حتى جاءت الفرصة على طبق من ذهب، وذلك حين تغيب أحد أبرز المهاجمين عن فريق محلتنا أمام منافس قوي، غالبا ما كان يفرض هيمنته وإمكاناته على فريق محلتنا، ليمنحني المدرب فرصة العمر، شاكدا ذاتي بها، متأملا أن أكون عند حسن ظنه.. وقد صدق المتنبي حين قال ((مصائب قوم عند قوم فوائد)).

ما أن طفحت الفرصة أمامي؛ حتى تمسكت بها، مقدما نفسي للمدرب، مانحا إياها فرصة العمر، في الوقت الذي به انتشلت المدرب من أوج حيرته التي كان عليها، ليعوض النقص الحاصل في فريقه....

في حقيقة الامر كان المدرب مجبرا على قبول عرضي؛

لتغيب ثلاثة أو أربعة من عناصر فريقه الأساسيين لأسباب أجهلها. لذا بعد أن أوصِدتْ أبواب أمام خياراته؛ رضيّ بي مجبرا، لم تكن لديه خيارات أخرى، ولا لديه فكرة واضحة عن قدراتي ومهاراتي الكروية.

ما أن دخلت ساحة الملعب؛ هجست بنشوة تملكت جوارحي، غسلت آثام صمت طويل أرهق فكري، كان عليَّ استغلال الفرصة لأذيب ثلوج الهم، لأجزل عبث الشك، لقد صرفت جُلَّ طاقتي وعلاقتي بمدرستي وشؤوني واهتماماتي الأخرى من أجل الظفر بها، بحثت عنها بإسهاب الفكر في بطون الظن وآفاق الحلم المترامية، طرقت أبوابا عسيرة لأصل غايتي.

إذا التجربة دعتني أمثل فريقا لم يتقبل وجودي في صفوفه سابقا. ذلك ما جعلني أنتشي بنشوة نصر، لم تسعني الفرحة، طارت بي لقرص الشمس، لأبرز من هناك بكل ما لي من طاقة وعنفوان، كفوتونات الضوء، لألهبُ أرضية الملعب بالفن والألق.

مع صافرة الحكم تحركت جيوش التحدي في مرونة القدم، لتزيح هالات الظلام عن العيون الغاشية والنفوس الغاشمة من المشككين بقدراتي، في الوقت الذي به عرت مرام المغرضين والحُسّاد الذين أزعجهم وجودي في الفريق.

نشوة لم أشعر بها من قبل، هجست بها كلون البنفسج الطافح بزهرة اللافندر، شحنتني بالمثابرة، جعلتي انسى كوني أجرب قدراتي في محك حقيقي. صاحبت تلك النشوة رهبة خفية، خلخلت ثقتي بذاتي، كضباب الصبح أغشت هواجسي، كوني أول مرة أقابل بها جمهور غفير يتابع الفريق، له باع في مجال الكرة.

ما فتأت تبخرت تلك الرهبة مع صافرة الحكم. لم أدع للشك

موضع يعيق مزاجي، لم أسمح للقلق من أن يقيد ثقتي بنفسي. ما برح ذلك النور المشع في العقل، طفق يستثير المرونة في القدم، يمحق الرهبة من فضاء الكرة.

مع صافرة الحكم بدأتُ أتحرك في ميدان الكرة عرضا وطولا، واضعا الحلم نصاب العين، متمسكا بالرغبة والتحدي، متكئا على التوجس والحذر كعكازتين تسند حركاتي، وظبتهما كالجهد والطاقة، ما أن يخفِق الجهد؛ استعين بالطاقة.

في كل خطوة أخطوها كانت الفكرة تتدحرج أمامي لتعينني على حل لغز الكرة، في كل مناورة كنتُ أبحث بها عن إذلال العقد، عن إيجاد ألفة حميمة بين الكرة والقدم. أصبحت مسارات تحركاتي في الملعب من أولوياتي الأساسية، مع إبراز ما أخفيَ من مهارات وقدرات فنية تعلمتها.

بدأت العب بثقة عالية جدا، بحيث صرت أحاكي الكرة في مساراتها، أداعبها براحة قدمي، أمنحها ثقتي وقدراتي، تبتسم لي، تتراقص تحت القدم فرحة جذلى. اتأملها، تلازمني، تصاحبني، ترافقني، تمنحني ثقة بالنفس، كشفتْ لي عن عشق حميم يجمعنا، غدى التناغم بيننا مرهفا بالحس واللمسة، أعينها على الحركة وتعتني على السيطرة.

صرتُ أحف بها الأرض، أدحرجها برفق ورغبة، تقرأُ ما يدور في سطور الذهن، تستهوي فكر القدم قبل أن أقدم عليها. أضحتْ العلاقة بيننا جدلية، مثالية، تميل حيث تميل المرونة بالقدم، ترقص على وقع الفكرة والمهارة، تطاوع لمسات القدم، مستهامة برقة إحساسي بالحركة... أهجس بجاذبية ناعمة تجمع بين الكرة والقدم، فيها شيء من المغناطيسية، بحيث ما أن تبتعد عني؛ حتى تعود إليَّ بشوق ولهفة، لتلتصق بخف القدم، لا تحيد عن مساراتي قيد شعرة، تستهوي إرادتي بحرفية.

صارت الوشائج حميمة بين الكرة والقدم، بحيث يجتمعان على آصرة الفن والأبداع مع كل مناورة أو مناولة أبديها، أضحى التناغم بيننا على أشده، أحاورها، تحاورني، أراعيها، أداعبها، تلتف حول رغبتي، تتحرك حسب الأهواء والغاية، كأنها مرتبطة بالقدم بميثاق عهد وعبودية. ما أن تدرك غاية القدم؛ حتى تستميل لأهوائه، فتزيدني سحراً وألقا في أرجاء الملعب، تزيدني ثقةُ ويقينا بقدراتي ومناولاتي.
أضحت لغة الحوار تطرب الجمهور، للشغف الدائر ما بيني وبين الكرة. ما فتئت أضحت لغة الحوار لغة عشق وتخاطر وهيام وثقة متبادلة، ترجمت صدق العلاقة التي تجمعنا..
مع مرور الوقت تحولت العلاقة لإصرار وتحد قائم ضد الخصم، تخطتْ لغة الفن والمهارة إلى لغة يفقهها الجمهور وحده، لغة تخاطر وبرمجة بين العقل والكرة، بحيث بإيحاء من العقل تستجيب لدوافع القدم، بنظرة من العين تفسر خواطر الذهن، منصاعة لإرادتي دون كلف، دون أن أجهد ذاتي في محاكاتها.

بدأت أسمع تصفيق الجمهور وهتافاته الصاخبة وهي تشد من أزري، صار الملعب يزداد هيجانا وصخبا مع كل لمسة ألمس بها الكرة، لتحكمي بها ودقة إمرارها لزميل أو حين أسددها باتجاه الهدف. بحيث ارتقت الحالة درجة القيادة والانضباط، خلخلتُ صفوف الخصم، تمكنت من شق ترع ومسارات بين تكتلاته، حتى تقوضتُ ثقته بنفسه.
مرة تلو المرة أزدتُ ثقة ومعرفة بطرق الهدف، أحيانا أشعر بالكرة تكافئني حين تتدحرج أمامي حسب أهوائي، وأحيانا أنا الذي أكافئها حين أحيدها عن اتجاهات انحرافها.
ومع ازدياد التشجيع وتعالي الأصوات باسمي، وفرحة

المدرب بالمستوى الذي أقدمه لما شعر به من غبطة، ذلك ما لمحته من خلال تشجيعه المستمر لي ومنحي الثقة اللازمة والحرية الكاملة بتحركاتي وتوزيعاتي المربكة للخصم، أحسست بمسحة أمان تكتنفه، سرور عام يغشي وجه المدرب والزملاء، ما دفعني إلى بذل قصاري العزم في إدارة اللعبة، لقد شحنَ طاقتي بالدافعية، كان ذلك واضح من خلال تشجيعاته المتكررة لي (أحسنت يا حسن، سدد يا حسن).

ومن فرصة مواتية لم أدعها تفلت من قبضة القدم، لم أدعها تُلفت ذهن الحارس، ومن ضربة مباغتة على هدف الخصم من خارج منطقة الجزاء ذللت بها المسافة، كنت قد منحت بها فريقي فرصة التقدم بتسجيل الهدف الأول، وذلك حين استقرت الكرة في الشبكة على يمين الحارس.

كان هدفا مباغتا، جميلا، هز أركان الخصم والملعب، شج السكون بهدير الأبواق وبأهازيج حناجر الجمهور. تعالت الأصوات في الملعب وهيَّ تشدو باسمي.

بدأ الفريق المنافس يستشعر خطورتي، صار يراقب تحركاتي بأكثر من لاعب، يتبع خطواتي عن كثب، ما أن المس الكرة؛ حتى يرمي بثقله اتجاهي، مما جعلني أمنح زملائي فرصة التحرر والتقدم نحو هدف الخصم.

تسيد فريقنا أرجاء الملعب، كثفت هجماتنا وتسديداتنا نحو المرمى. هجس بانكساره وتراجعه، فلا مناص من تقبل هزيمة أكيدة حاطت به، ما دفع إلى تغيير خططه وأسلوبه اتجاهنا، صار يعتمد على مبدأ الخشونة الزائدة، عسى أن يتجنب خسارة ثقيلة.

الخشونة بحد ذاتها كانت عامل رعب بالنسبة لي، لنحول جسدي وضعف عضلاتي البدنية.. ما جعلنا نلعب بدقة تفوق

توقعاتـه، مـن خـلال تمريـرات سـريعة متبادلـة أصـابته بالـذهول. هـذا مـا جعـل المبـاراة تتحـول إلـى صـراع وتنـافس كصـراع القـط والفـأر، نـركض بـالكرة وهـم يتبعـون أثرنـا، محـاولين كـف جماحنـا وتقدمنا بعامل الخشونة.

كنـا اشـبه بخليـة نحـل فـي تعاوننـا، نبـذل جهـدا مضـنيا، ثـم ننـزوي خلـف الغايـة، لنجلـدهم بسـوط المفاجـأة- فيمـا بـاتوا يقـابلون محاولاتنـا بنديـة عاليـة وخشـونة، مسـتخدمين الضـرب المتعمـد وقطـع الكـرة بفكـي المقـص. محـاولين قـدر الإمكـان تجنـب مخاشنتهم والإفلات من شباكهم...

أسـتمرت المبـاراة علـى هـذه الشـاكلة بهجـوم شـرس مـن قبلنـا ودفـاع مسـتميت مـن طـرفهم. الخشـونة بـدت واضـحة وبالـذات معـي، وكـأني القطـب الأوحـد الـذي أخـلّ بتـوازن فـريقهم لصـالح فريقنا.

قبـل بـدأ المبـاراة كـان الخصـم قـد لمـح بإمكانيـة الظفـر بالمبـاراة، مـبجلا ذاتـه بثقـة عميـاء متجـاهلا قـدراتنا، متأكـدا مـن عبـور قنطرتنـا. هـذا مـا راهـن عليـه وتوقعـه، مـن خـلال تعـابير وجـوههم اسـتفزازاتهم المثيـرة للجـدل.. تلـك العدوانيـة منحتنـا فرصـة التحـدي، المفاجـأة أذهلـتهم، كالـت لهـم الصـاع صـاعين، اختزلـت كبريائهم إلى شراشير ورق تلهو بها الريح.

ومـن فرصـة ثانيـة سـانحة قبـل أن تنتهـي المبـاراة بـدقائق، تقـدمت بـالكرة مراوغـا المتقـدم والظهيـر الأيمـن ثـم المـدافع المتـأخر، تمكنـت مـن مواجهـة المرمـى بعـد أن دحرجـت الكـرة مـن بـين قـدمي المـدافع، وقبـل أن أسـدد الكـرة، منحنـي دفعـة قويـة مـن الخلـف، ممـا جعلنـي أفقـد تـوازني، لأصـطدم بالقـائم القريـب وبشـكل مريـب ومباشـر، ليتـرك هـذا الاصـطدام شـرخا عميقـا بعضـلة الكاحـل الأيمـن، وكدمـة بعضـلة السـاق الأيسـر. فتزامنـت صـرختي العاليـة

مـع صـافرة الحكـم، ليمـنح فريقنـا ضـربة جـزاء مُحقـة، وكـارت أحمر لمدافع الخصم.
الـدموع المنهمـرة لـم تمنـع ابتسـامة النصـر مـن أن تغشـي ثغـري بملمـسٍ مـن حريـر، سـعادة ناعمـة غمـرت قلبـي، دهنـت حنـاجر الجمهـور بالسـرور، لتصـل أصـداء مهـارتي لثنايـا الصـحف والشارع.

صـورة النجـاح تـلألأت كمـرآة عاكسـة علـى وجـوه الـزملاء، وبالـذات المـدرب الـذي تـألم كثيـرا علـى خروجـي مـن الملعـب، معبـرا لـي بمشـاعره الجياشـة، مـع عبـارات الثنـاء والمـديح الـذي مـلأ بهـا فضـاء أذنـيّ، مؤكـدا علـى العـودة السـريعة لصـفوف الفريق.
إصـابتي لـم تمنـع الفـرح والبهجـة مـن أن ترسـم إشـراقة الحلـم علـى وجهـي، بعـد أن تحققـت الغايـة المـرادة، تلـك التـي نبـت لهـا زغـب وريـش، بـت أراهـا عاليـة فـي الأفـق كـالطيور الجارحـة، وفي سماء الكرة نجمة بارقة، الكل يتأمل رجائها.
علـى الـرغم مـن النجـاح اللافـت الـذي تحقـق، إلا إنـي شـرعت أفكـر بهـدف أكبـر وأسـمى، فـالطموح لازال صـغيرا فـي أول مشـواره، والطريـق إلـى القمـة تبـدأ بخطـوة. مـا تحقـق كـان أول الغيـث، حيـث الأهـداف دائمـا مـا تكبـر وتسـمو مـع العطـاء المبـذل. "واذا عـزمتم فتوكلوا" صدق الله العظيم.

المتسول

لم يخطر في باله مطلقا بأنَّ نمط روتين حياته الذي تعود عليه منذ طفولته سيتغير نوعا ما عما سبق، لم يك يتوقع بأنَّ لوح عرضي في مجراه سيرفق به، سينتشله من صخب الفوضى، لتتوقف عجلة زمنه القديم في انحدارها، ليتنفس جذوة صبره، وهي تمضي به عكس اتجاهها السابق، إلى حيث دفء الشمس التي لم يرفأ بها فيما مضى؛ لتقشع الغمام من على رأسه إلى الأبد.

لقد عاش حياة زهد عقيمة، بعيدة جدا عن أنظار واهتمام المعنيين، حياة ركدت ركود المياه الآسنة، حتى غدت لا تعني له شيئا بعد أن تعود على استنشاق نتن قروئها. بالأحرى أصبحت حياة خاملة، مملة، لا رونق فيها، يكتنفها جواء ذل ومهانة، تغذيها فاقة وهوان، حياة لا تقنع أحدا قط.

لقد عاش حياته منزويا تحت ظل الفقر منذ نعومة أظفاره، ولد بلا مأوى، ترعرع في الأزقة والشوارع، شاقت حياته الفاقة بحثا عن الستر ولقمة العيش. حياة لم تك من اختياراته، أنما فرضت عليه.

لمْ يدرك فرحا حقيقيا، أو يشعر بأهمية وجوده في الحياة قط، لمْ يلتمس شكل إنسانيته، لمْ يهجس بذاته ذا دلالة يعتز بها، ليبجلها ويحترمها ويستشعر بقيمته ووجوده كإنسان على هذا الكوكب. كان الفقر قد جرده من رونقها، قيد علاقاته بالمجتمع، عقر ظرفه بالصراعات والتناقضات والأزمات المحيطة به.

عاش غريبا، جاهلا، عازفا عن أبسط أمور الدنيا، محروما

من الملذات والرغبات والتأملات، بل أنه لم يشعر إطلاقا بأن الحياة قد أهتمت به واهتدت بسره يوما ما على مر الزمن.
لم يتذوق سعادة حقيقية على مضى من العمر، فالأيام في قاموسه لم تُعد سوى محطات عابرة، تذكره بالطوفان القادم، والذي لابد أن يدرك نهاية المطاف يوما ما.
محطات يجب أن يجتازها بروتين متطلبات اليوم من مأكل ومشرب ومنام كباقي الحيوانات السائبة، متجولا في الشوارع والحدائق العامة تحت جلد الفصول المتجددة والطقس المتقلب، متحملا سلوك بعض البشر المبتذل.

***

كان قد تعود على وقوفه في وسط دوار الزهور، في تقاطع الطرق الرئيسية في وسط المدينة، ترتعش سيجارته بين أصابع يده، لزمهرير الطقس وسوء التغذية. تلك السيجارة تكاد لا تُخمد نيرانها، كأنها فتيل أحلام تحترق بين أصابعه، كأنَّ جمرها يستقطب النار من حشا قلبه وفكره المضطرب.
هكذا وجد، جلدا، صامدا في ركنه، ينتظر أن يهلْ عليه غياث سحب الرحمة، لتهون عليه حياته، وقدره. كان ينتظر رأفة العابرين عليه بصمت، برهق، كحجر أصم جاثم على قارعة الطريق، متحديا قسوة الزمن وتجني العمر والأقدار دون كلل أو ملل، متأملا أنْ يطاله رذاذ عطف الأغنياء المارقين به، بفتات ما يجودون به من صدقات وحسنات، تحل جزءا من معضلته، تكحل عينه برضا الله، تعينه على جلد الحياة ومشاقها المُرّة.

كنت قد تعودتُ على شكله ورائه، عرفته وهو يرتدي بنطلونٍ رثٍ، واسعٍ، من الصوف الأسود، وسترة رمادية طويلة

تغطي ظهره، تتدلى حد ركبتيه، تحمل من الغبرة والقذارة بقدر ما نثرت عليه السنين من متاعب وعناء. ذلك يدل على أنه لم ينم إلا بملابسه الرثة على الأرصفة ومصاطب الحدائق، تلك هي كُل ممتلكاته، فهي تُعد لباسه في النهار وغطاءه في الليل، تقئه شر الطقس ونواميس الحشرات اللاسعة، بل تكاد الحشرات تهرب منه لزنخة رائحته وعطن ملابسه.

الظرف المحيق به، جعله بذات الشاكلة، ثياب رثة، بالية، مشبعة بالرطوبة وبكتريا العفن، تلك الملتصقة على جلده المتخشب لقلة استحمامه. يكاد يطفر من جلده الدم، للأكزيما المنتشرة على جلده، لديناميكية الحك والهرش المستمرة معه، تلك دلالة على أنه نادرا ما يصب الماء على جلده، أو بالأحرى أنه لم يجد حمّاما يستحم به. تجده منبوذا من قبل المجتمع والمنظمات التي تدعي الإنسانية، التي لا تفكر بمصير هؤلاء الفقراء، مقارنةُ باهتماماتهم بالحيوانات السائبة والجولات الترفيهية.

فتق كبير يخرق سترته الطويلة من تحت الإبط الأيمن لوسط خاصرته، بحيث كلما رفع يده؛ تنكشف بطانة سترته السوداء. دائما ما أجده يرتدي نظارات داكنة، ذات إطار بلاستيكي، تغطي محجر العين، تقئه لفح الشمس وصقيع البرد، تعينه على مقاومة الطقس بوقوفه في العراء، متحديا سخط الشمس وسقم تقلبات الفصول والزمن والأقدر برمق يسير من الأمل، عسى أنْ تسوق ظنونه اعتبارات نفسية تنقله لضفة الأمان.

لحظة تمناها أن تشفق في أعين المسؤولين والمقتدرين من الأغنياء على تحسين أوضاعهم المزرية، فهو لا يتأمل قصرا

ولا جاهـا، أنـه يقتنـع بـالنزر اليسـير، بجـدران تأويـه وبلقمـة عـيش تحفظ كرامته.

هـذا لا يكلـف الدولـة شـيئا ممـا تبـذخ علـى احتفـالات أعيـاد المـيلاد والاحتفـالات المصـطنعة الدينيـة والترفيهيـة التـي ترهـق ميزانيـة الدولـة، ناهيـك عـن حجـم البـذخ والسـرقات التـي تتعـرض لها خزائن الدولة، جراء عبث المسؤولين بقصد أو دون قصد.

كنـت قـد شـاهدت مقطعـا فـديويا لأحـد أبنـاء المسـؤولين، يصـرف مئـات الألـوف مـن الـدولارات فـي جلسـة قمـار فـي مدينـة مـونتي كـارلوا، دون أن يـراع حرمـة الله فـي التبـذير، لـم يـذكر فضـله فـي فـيض خيـره وغنـاه، كـان الأجـدر بـه أن يتصـدق بتلـك المبـالغ علـى المؤسسـات الخدميـة والخيريـة فـي الدولـة، كالمـدارس والمستشفيات ودور العجزة والأيتام ...الخ.

دائمـا مـا كنـت أجـده منزويـا فـي ركـن مـن أركـان الشـارع الـذي أمـر بـه كـل يـوم، متوجهـا إلـى مركـز عملـي، الـريح تهـف شـعره الأصـهب، بحيـث تمنحـه الهـدوء والسـكينة خـلال انطوائـه وسـرحانه، صـور مـن العنـاء تقبـع فـي وجهـه، معبـرة عـن فقـع مأسـاته. ففـي كـل بقعـة مـن جسـده تجـد صـفة مـن البـؤس ملتصـقة بهـا، تشـرح جَلَـد السـنين وقسـوتها. ممـا يـدل علـى أنـه فـي قـرارة نفسـه، راض عـن مـا تجـود بـه الـدنيا مـن قسـمة رغـم ضـآلتها، أو أنـه بقناعتـه قـد تعـود علـى وقعهـا؛ ممـتن لمـا يأتيـه مـن رزق زهيـد، عبـارة عـن وغـف مـن فـيض الخيـرين، يـدهن بهـا معدتـه لتعينـه على الصمود والبقاء.

أنـه مجبـر علـى الرضـا بمصـيره، فـلا منـاص مـن أن يجتـاز تلـك المفـازة حسـب مـا تشـتهي الـنفس، الخطـوط المحفـورة علـى جبينـه وتحـت عينيـه؛ تشـهد علـى أن تلـك القسـاوة التـي أرهقـت ظنـه وظهـره، والتـي عبثـت بمقدراتـه كيفمـا تشـاء؛ لـمْ تـراعِ حرمـة

الـذهن ورغبـة الـنفس قـط، بـل انتهكـت أحلامـه دون أن يـتمكن مـن أن يتجنـب جلـدها، جعلـت مـن البـؤس صـفة تغطـي قسـمات وجهـه، تاركـة لحـاه تتبعثـر فـي وجهـه المصـفر كجُـزرٍ مـن الشـقاء، تحكـي عجزه وضعفه..

*****

هـذا الرجـل وعلـى مـدى ثلاثـة اشـهر صـار جـزءا مهمـا مـن اهتمامـاتي الشخصـية، هجسـت بـه جـزءا مشـعا مـن معلـم الطريـق، طالمـا يعترينـي منظـره خـلال ذهـابي وإيـابي لعملـي كجداريـة أتمعـن بهـا كـل يـوم، تعبـر عـن جـزء مـن المأسـاة المغـروزة بـالمجتمع، فـلا منـاص مـن تجـاوزه قبـل أن أرفـد نظـري بمحتـوى قامته، محاولا اكتشاف سره وصموده.

فأنـا أديـر معمـلا صـغيرا للخياطـة، يشـتغل بـه بواقـع 30 عـاملا، فيـه عشـرون مكينـة خياطـة منوعـة، منهـا الجـوكي"juki".والسـينجر"singer". .والبـراذر"brother". وماكينـات تطريـز و ابليكاسـيون..و ماكينـات السـرفلة ...الـخ. لقـد بنيت هذا المعمل بجهدٍ خاصٍ....

فيمـا سـبق كنـت قـد مـررت بأزمـات ماديـة كثيـرة، عشـت خلالهـا حالـة العـوز والضـنك، تعرفـت خلالهـا عـن الـوان الفاقـة مـن الحيـاة، لذا كان منظره قد أثر بي، جعلني أضعه ضمن اهتماماتي.

كمـا أنـي وبفضـل الله ورحمتـه أمتلـك بيتـا صـغيرا وسـيارة صـغيرة تفـي بـالغرض، تعيننـي وعـائلتي الصـغيرة المكونـة مـن زوجـة رائعـة وطفلـين رائعـين علـى التنقـل بهـا لمجـاراة سـير الحيـاة. بطبيعـة نفسـي ومـن خـلال الفتـرة السـابقة، كنـت قـد جـدتُ علـى هـذا المتسـول بمبـالغ بسـيطة لا تتعـدى فـي أحسـن الأحـوال عـن خمسـة دولارات بـين فتـرات متباعـدة، كنـت أشـعر بزهـو وفخر بذلك، متباهيا أمام ذاتي وأمام الله بكرمي عليه.

حيـث دائمـا مـا تخطـر فـي بـالي الآيـة الكريمـة " وَآتِ ذَا الْقُرْبَـىٰ

حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا " صدق الله العظيم.

لتكرار وجوده في الطريق، صار هذا المتسول معلما مألوفا جدا بالنسبة لي، لا بل أنه أصبح وجوده جزءا من الواقع المفروض، صورة من معلم المدينة؛ حتى صار يكنى دوار الزهور بدوار المتسول! أجد وجوده في الدوار أضحى كطابع من طوابع المدينة.

ففي عرف الحياة تجد عِربٌ تحتوي على زوايا حادة ومنفرجة تعبر عن كيان الشخص. مخارج تدور حول محاور مغلقة، بحيث تجمع بمساراتها ألوان الطيف في بوتقة واحدة، تناقضات تدخل في قواعد الحياة. فلولا القبح ما شعرنا بملاحة الوجه، لولا هشاشة الضعف ما أدركنا محاسن القوة، ولولا المساكين والفقراء ما تحسسنا مراكز الرفعة من سمو وغنى.
التعفف مقابل الهوان! .. أنها الطبيعة كما خلقها الله، وأدارها البشر بقواعده وقوانينه وسلوكياته الغير متزنة، فجعلها قوس قزح حسب أهوائه، تروج بها صور داكنة حزينة وأخرى بهيجة من صور الفقر والتعفف.
***
خطرت في بالي فكرة جلية؛ ألا وهي: أن أقتحم أسوار هذا المسكين، أن أدخل جوفه، أن أكتشف أسراره الخفية، عسى أن أتمكن من تصفح أوراق حياته التي كتبها بحبره السري، عسى أن أكتشف طبعه ومعدنه والمسالك المظلمة المخفية في أزقة حياته، راغبا معرفة حقيقة هؤلاء المساكين عن قربٍ، عسى أن أجد ضالتي في منهجه وسلوكه.
كان يجب أن أطرق باب ظنه بشكل مختلفٍ، أن أُقَلّبُ صفحات حياته المبهمة رأسا على عقب ودون أن ينتبه، دون أن

يـدرك حقيقـة غـايتي، كـي لا يعتـرض علـى فضـولي وتخبطـاتي، معرفة حقيقته وما يخبئ من أسرار في جوفه.
وددت أن أتعرف على هويته الحقيقية.

ولكن؛ كيف السبيل إلى ذلك؟؟؟؟؟؟

لجلـي غبـار الشـك؛ تحركـت إنسـانيتي تحطـيم أسـواره المنيعـة بعمـل يهـز كيانـه، عمـلٍ يضـعه تحـت المجهـر، لأكتشـف سـر مـا يشغل بالي، كونه دخل أجواء فكري دون غيره.

فـي الحقيقـة؛ الفضـول دفعنـي لاكتشـف غمـوض العـالم الآخـر المـبهم، الكـائن خلـف ذلـك الهـدوء القـابع فـي وسـط الـدوار، المشـبع بالأسرار، حياة طحنتها العُقد وشاكستها الظروف واللامبالاة.

أنـه أشـبه بلغـز محيـر بالنسـبة لـي، كونـه لا يبـدل منهجـه، مـرابط فـي هـذه السـاحة منـذ فتـرة طويلـة، ربمـا أنـه مسـير مـن قبـل منظمـة مـا، أو مدسـوس مـن قبـل أمـن الدولـة لمراقبـة حـراك النـاس، حفاظـا علـى الأمـن العـام.. ربمـا أنـه فعـلا رجـل أمـن يتسـتر بـزي متسـول! كـل الاحتمـالات ممكنـة، لأزيـح السـتار عـن وجهـه، ومعرفـة درجـات انكسـار لونـه؛ قـررت أن أعطيـه مبلغـا قيمـا مـن المال، ثم اراقب ردة فعله وكيفية تصرفه..

.... يـا تـرى؛ أيمكـن أن يكـون لهـذا المبلـغ اليسـير مفتاحـا لأسـراره مغلقـة؟ أم سـتذهب المحاولـة أدراج الـريح دون فائـدة، بذلك تكون محاولتي مجرد لعبة قمار خاسرة؟.

تقدمت اليه: سلمت عليه- صافحته- سألته:...

- ما أسمك؟

تفـاجئ مـن سـؤالي!.. فلـم يتعـود أن يسـأل عـن أسـمه، أجـابني مبتسما :--

- يقولون عني جواد.

- كم عمرك يا جواد؟

ضحك وهو في ذهول هذه المرة، ثم ادرك قائلا .

- لا أعرف بالضبط... لم يعنيني ذلك، لكني بحدود 40 عاما!!

- كأنك في نهاية الخمسينات يا جواد!! هل أنت متزوج؟

رد على سؤالي بانكسارٍ في نظرات عينيه، كأنه قال لي... لا تستهزئ بي ولا تزد من مواجع الألم، يكفي مأ أعانيه من جوع وتشرد، حينها وضعت في يده مبلغ من المال.

- خذ يا جواد هذا المبلغ ....

أخرجت من محفظتي مائتي دولار ووضعتها في راحة يديه، حيث أنه لم ينتبه على قيمة المبلغ، أنه تعود أن يأخذ بعض السنتات، وفي أحسن الاحول يقبض ما قيمته دولار أو دولارين، وهنا كان لابد من تنبيهه.

- يا جواد أنتبه؛ أحرص على المال، أنها 200 دولار!!

هنا صعق وذهل! أصابته رعشة في يده، حاول أن يعيد المبلغ إليّ لثقله، فلم يتصدق عليه أحدا بمثل ما تصدقت عليه.

قال لي بانكسار:...

- يا سيدي هذا كثير جدا!!

- لا عليك خذ المبلغ أنه رزق من الله وليس مني، أنما أنا وسيلة وصل فقط.

كادت تنهمر دموعه وهو في أوج فرحه، غير مصدق، ود أن يعبر لي عن شكره وثنائه، لكن؛ عيونه وملامحه نطقت عوضا عن لسانه. بقيَّ صامتا، متسمرا في مكانه! كأني سمعته يدعو لي بالخير.. كأنه قال لي؛ الله يرزقك ويفرح قلبك ويحفظ عزيزك ويفرج همك.

فعلا سمعته بهواجسي يقول ذلك، هواجسي لا تكذب، أنه فعلا دعا لي بلغته الخاصة، من خلال صمته وجموده ونظراته،

دعا بلغة أفهمها جيدا، إنها لغة الملائكة، تراقصت الكلمات في تعابير وجهه كفقاعات الماء المغلي.

تركته مشغولا بتفكيره، ثم عدتُ إلى سيارتي أراقب تصرفه وسلوكه عن كثب، وضعته تحت المجهر.

بدأتُ أحسب حسابه؛ يا ترى بَعدَ أن أستلم هذا المبلغ الذي يكفيه معيشة شهر، أو شهرين على أقل تقدير، كيف سيتصرف؟ أنه لا يحتاج من الدنيا سوى للباس جديد لا يكلفه 30 دولار من ملابس البالات المستعملة النظيفة، ولقمة العيش يكاد يحصل عليها من الصدقات دون أن تكلفه شيئا.

تبعته دون أن ينتبه، ما كان يشغل خاطري تفكيره بعد أن استلم المبلغ. تكهنات لا تستقر في محلها... فيما سبق كان تائها في تدبير الرزق، أما الآن فأنه تاه في تصريف الرزق، أشعر به مشتت الذهن، تفتحت أمامه مسالك وطرق جديدة، كانت فيما سبق مجرد أحلام يتأملها، ليلتمس بعض أمانيه، ليرى شيئا مما كان يسعى خلفه...

بمجرد أن تركته؛ لملم أشلاء فكره المبعثرة، عزم على ترك الدوار خلفه، بدأ يجري بخطوات متسارعة، متخطيا المعابر والشوارع، تبعته بسيارتي دون أن ينتبه، أحيانا كنت أتبعه مترجلا حين ينزوي بين المارة، أو حين يدخل بمسارات الأزقة الضيقة ليتخطى مشواره.

خلال تتبعي له؛ لم أره يلتفت للمارة قط، لم يمد يده لأحد من الناس، أجتاز الطرق بخطوات ثابته، كأنه عزِمَ على شيء ما، عزمٌ ما يدفعه لغاية خطرت بباله.. كانه أكتفى ذاتيا بما أمتلك، شكمت تصرفاته عزة نفسه، دون أن يسقط في هوة الطمع - كان يجري أشبه بالنهر، ثابت العزم، لا يقف على شيء، قاصدا هدف ما، الفضول دعاني اتبعه لنهاية المطاف، حتى يكلُ به

المسير أو يذلل غايته.

تخطى الشارع العام للجهة الثانية، أستمر في مشييه مسافة كيلومتر تقريبا، ثم أنعطف يسارا في شارع فرعي، بحدود 200 م، ثم دخل متجرا كبيرا قابعا في ركنه الأيمن من الشارع، وهو متجر جمعية شبه خيرية، تبيع منتوجاتها بربح غير محسوس.

بقيتُ قابعا داخل سيارتي، غير مبال للزمن، أنتظر خروجه، تكاد عيني لا ترمش في محلها، تتبع الداخلين والخارجين من المتجر، متسمرة صوب بابه، تنتظر لحظة خروج جواد منه.

باتت مشاعري تقرأ الحدث أسرع من فكري، تفسر لي الحالة قبل أن يتيقن الفكر تفسير ما ستؤول إليه الأحداث، حيث وجَدَتُ في شخصه ندرة الصفات، وجدته يختلف عن باقي المتسولين الذين يجوبون الشوارع كالدبيب، يختلف عن الكثير من البشر الاصحاء. تنجمع في خصاله الطيب والأملاد، أنه نقي كرمل البحر، يكاد لونه المشع بالخجل يميزه بصفة الاحترام والتقدير.

أذكر مرة قد أحسنت بمبلغ بسيط لأحد المتسولين في اليمن، كان طاعن السن، منحن الظهر، أذله الزمن كثيرا، بحيث لا تستطيع الرحمة أن تهرب من مواجهة لوح انكساره، وبعد أن تصدقت عليه بمبلغ بسيط، تقدم مني فتا قائلا لي..

- لِمَ ساعدته؟ ألا تعرفه؟!!!
- عن من تتكلم؟ ماذا تقصد؟.
- هذا المتسول الذي تصدقت عليه قبل قليل؟
- أيجب أن أعرفه كي اتصدق عليه؟... فمن يكون؟
- أنه تاجر كبير يملك عقارات وأرصدة كبيرة في البنوك، وثلاث عمارات، لقد أعماه الطمع.

اصابتني المفاجئة!!!....

قلت باندهاش:...

- هــذا؟؟؟؟؟؟
- هو ذاته.
- أعـوذ بـالله مـن طمـع الـبعض، يمـوت البخيـل وعينـه علـى المزبلة...

شـعرت بـه لـص محتـرف سـرقني بـإرادتي، وددت أن أمـد يـديَّ فـي جعبتـه لأسـرقَ كـل مـا يملـك، عسـى أن يشـعر بفقـر النـاس، والتـي غالبيتهـا تتصـدق وهـيَّ بحاجـة إلـى صـدقة... حسـبي الله ونعم الوكيل على كل من يستغل البسطاء من الناس.

لكـن جـواد لـيس طماعـا، أظنـه يختلـف عـن ذلـك المتسـول، أهجس بـه أفضـل بكثيـر مـن بعـض الأصـحاء لـو قارنتـه بهـم، ذلـك مـا لاحظتـه عليـه خـلال تتبعـي لـه. أحسسـت بـه يمتلـك كرامـة وقناعـة، تلـك هـي قمـة سـعادة الفـرد، التـي يبحـث عنهـا الأنسـان، تزيده احتراما وأناقة أمام سحر الحياة وعقدها.

لـو كـان ممـن يشـترون الطمـع لمـا غـادر سـاحة الزهـور، لـو كانـت غايتـه المـادة؛ لمـدّ يـده إلـى هـذا وذاك خـلال الطريـق. حسـب رأيـي أن الحيـاة مثلمـا أدارت لـه ظهرهـا، التفتـت إليـه مـن جانـب آخـر، علمتـه دروسـا فـي القـيم والإنسـانية، صـار يتكـئ عليهـا كباكورة الصبر.

لـم تـدم مـدة انتظـاري طـويلا، خـرج مـن المتجـر وهـو يحمـل كيسـا كبيـرا ملـيء بالبضـائع علـى ظهـره، يكـاد لا يسـتطيع حملـه لثقلـه. منحنـي الظهـر، أتجـه يمينـا، هجسـت بـه يجـر حمـلا مـن صـلب الهمـوم، أثقـل بكثيـر ممـا يحمـل علـى ظهـره، غمامـة تغشـي وجهـه، تخـالط فرحـه وسـعده. هكـذا هـم المسـكين دائمـا مـا تجـدهم يطهرون أنفسهم بسعادة مهمومة.

كـل الـذين يصـيبهم رشـفة فـرح يكـون لـون حيـاتهم فـاتح اللـون، إلا المسـاكين؛ دائمـا مـا تكـون حيـاتهم رماديـة، نتيجـة الرعـب المحيط بهم من لسعة الغد المجهول.

مع الغبطة التي كبلت أوصاله وغلبت شقائه، مضى بثقة مفرطة في مسلكه، مسرعا نحو هدف غير معلن.
سار بحدود 300م أخرى، كان يسير وكأنه يعد بلاط الرصيف بدقة ووسع خطوات قدميه المتسارعة، عربة تجري بفعل الريح لميدان الراحة، ليغمد جرحه بالأنام.

في نهاية المطاف كان قد وصل لساحة كبيرة قرب حي فقير ممكن أسميه مستنقع المتسولين الآسن بالفقر، يتجمع به عددا كبيرا من أطفال ونساء وشيوخ، يقدر عددهم بحدود 30 متسولاً يجوبون تلك البقعة كالدبيب.
وما أن وصل شعبهم؛ حتى صار يمر عليهم الواحد تلو الآخر، يوزع عليهم ما تبضع، تجمع عليه الصغار والكبار، الفرح يتراقص في أعين هؤلاء، وهو يوزع عليهم مقتنياته من مأكل، وملبس، وألعاب، رأيت الذهول متسمرا في وجوه الشيوخ منهم، الكل غير مصدق، ينظر إليه بعين العجب، ليس لبخل جواد أو لكرمه؛ أنما من أين له كل هذا؟.
لأول مرة يتصدق عليهم شخص بهذا العطاء، فما بالك أنْ كان من صلبهم! بل أنه غالَ في جوده وكرمه المفرط، تصرف كولي أمر مسؤولٌ عن شؤنهم ورعايتهم.
أنه فعلا تميز بسلوكه وتصرفه، كما أنه يوما مميزا في حياته وحياة هؤلاء.

أما أنا تأكدت من سلوكه؛ حتى فاضت نفسي بمشاعر جياشة تجاهه، سعادة اغشت وجهي كرذاذ المطر، أنتشى فكري يطير في فضاء الحلم، تنمل الجسد، دبت قشعريرة بأوصالي، أضفت راحة في أعماقي.
لم أتمالك نفسي وأنا واقف بعيدا عنه، دموع فاضت بمحجر

العين، نشوة لونت طراوة الخد، بسمة بيضاء طفحت على شدقيَّ، سرحت بصور جواد المشرقة..

ما أن فقت؛ حتى ترجلت من سيارتي متجها نحوه، وهو منشغل في بث لون الفرح في قلوب وعيون رفاقه.. ربتُ على كتفه، ألتفت نحوي، تفاجأ بوجودي، أنحنى مرتبكا، صعقته المفاجأة! ..

فقلت له:.....

- لابأس يا جواد لا تنحني، كم كنت كبيرا في تصرفك، علمتني دروسا في فن الحياة لم تبلغه الكتب. إنسانيتك فاقت انسانيتي، أنك تصلح أن تكون قدوة لهؤلاء، وددت أن أعرف بعض جوانب حياتك، لقد جذبتني بكل تفاصيلها.

أنني مسرور بمعرفة رجل طيب بقامتك، يحمل من المبادئ والقيم قل نظيرها، النقود لا تقيم الأنسان مهما أمتلك منها، أنما الأنسان بإنسانيته، بحسن سلوكه وتصرفه..

كانت لوقع كلماتي عليه تأثير كبير على شخصه، ذلك ما أفرسته ملامح وجهه، عرفني على عائلة المتسولين.. لكن بقيت في نفسه معرفة سر وجودي في حياته، يقبع في قلبه استفسارا يخجل أن ينطق به.....

- يا ترى؛ من هذا الشخص؟ ولِمَ يتبعني؟ وماذا يبغي من وراء ذلك؟

لم أدعه في حيرة من أمره، قبلته، احتضنته، ثم قلت له:..

- أني وضعتك تحت مجهر المراقبة، والتجربة. غرضي أن اتعرف عليك وكيف سيكون تصرفك الذهني والنفسي، حين أسلمك مبلغا كبيرا من المال ماذا ستفعل به؟ هل أنت ممن يمتهن التسول أم من الذين يتسولون من أجل لقمة العيش؟ لقد نجحت في الاختبار، شكرا لك لأنك

قربتني من مجتمع منسي، لا أعرف عنه شيئا، وليس لهم أيَّ اهتمام من قبل الدولة والمنظمات الإنسانية، لم يوفروا لهم فرص عمل حقيقية يحتمون بها.

ثم استخرجت من جيبي مائتي دولار أخرى لأضعها في يده.

قلت له:....

- أعتبر نفسك موظفا في شركتي وهذا هو مرتبك الشهري مقدما، على أن توزع البضاعة التي تنتجها الشركة على المحلات التجارية في المدينة. كما أني سأقدم لكل هؤلاء الذين في معيتك ملابس جديدة تليق بهم، تعينهم على قسوة الحياة. كما ستكون أنت المسؤول، والوسيط، والقائد، في توزيع الملابس عليهم، وتسجيل احتياجاتهم.

فلم يصدق ما سمع بعد أن صفعته المفاجأة. أنحى على يدي يقبلها، وهو يستبشر بتغير مجرى حياة الجميع.

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون) [السجدة، صدق الله العظيم].

الفضولي

وقف شاخصا، مذهولا أمام دكان بقالة وسط حي مزدحم، لا يعرف ماذا يبغي أو يريد. يلبسه ارتباك من رأسه لأخمص قدميه، أعصابه مشدودة، حواجبه معقوفة، يبدو عليه يحمل في طيات ذاته هموما جمة. فتائل حزن تلقف جبينه، تاركة في وجهه المعفر نقوشا كوشام فرعونيَّة، جراء عسف السنين.

حالة لفتت انتباهي مثلما لفتت أنتباه المحيطين به، لذا أودعته سجن قيدي لأتعرف على سر عقده، حيث يبدو بشكله المكفهر مختوما بامتهان ما سن قدره.

تلك الصورة المشدوهة والملائمة لغيّه، امتدت أثارها إلى جسده وأطرافه، لذا تجده لا يستقر في موضع، ذراعيه تهتز كبندول دون إرادة، كأنَّ وراء تشنجاته قوى خفية تشحذ أعصابه، لا يستطع السيطرة عليها، فبدى أمام الملأ مربوشا كمن أصابه الجنون، لا يعرف الثبات، يتحرك جيئة وذهابا دون إرادة.

عقدة ما عقصت فكره جعلته يدور حول ذاته كالناعور، لا يستطيع التحكم بإرادته، مهموما، حائرا، عيناه شاردتان في الأفق، ربما يبحث في خواطره عن شيء ما يفتقده، شيء ذا قيمة يكمل نواقصه.

حيرة صماء جعلته لا يركن إلى ذاته، فمن خلال الملاحظة التي أجيدها؛ هجست بأنه يحتاج لمن يعينه على كربه، لحائط يستند عليه.

تلك السلوكيات أوحت لمن حوله بالانتباه عليه، طرحت

تساؤلات في ظن كل من راقبه متبعا عبثه، كل من التمس رعونته النافذة.....

- يا ترى من يكون هذا الرجل؟ أهو مجنون أم سوي؟..

سؤال دار في ذهن كل من تواجد قربه وأنتبه على تصرفه الأهوج، صرت أكلم نفسي:....

- لا لا... لا هذا ولا ذاك.. أعتقد أنه متورط بقضية ما، ربما أحتار في حل عقدة مشاكله، ربما مصاب بمرض الرعشة، فيداه لا تكف عن الاهتزاز.

وبحكم صفة الفضول التي لا أستطيع التخلي عنها؛ تقدمت منه محتكٌ به لمعرفة ما يدور في ذهنه، وجدته غارقا في عالم من الخيال، لا يدرك ما يدور في فكر وأعين متتبعيه من حيرة واستفسارات شغلت بالهم، كان فكره مشدوه في أمر ما، بعيد جدا عن ما يحيط به... لذا تقدمت منه مفاجأ إياه بسؤال عابرٍ:.....

- عفوا يا أخي: هل أنت بحاجة لمساعدة ما أقدمها لك؟

حملق في وجهي بنظرة شزرة، كأنه قال لي ما دخلك؟؟؟؟؟ ثم هز رأسه كما يفعل الهنود، نافيا رغبته دون أن ينطق بحرف، وكأنه ود أن يصرفني بحركته تلك... أنا بدوري كنت قد فهمت مغزى إشارته، لذا تجنبته، لكني بقيت أراقبه عن بعد...

انسحبت من المكان لأقف جانبا تحت ظل شجرة صفصاف، لم أستطع أن أخلع سترة الفضول من على كتفي، بقيت أتأمل حركاته، وأتوقع عقده مكلما ذاتي:...

... أكيد تدبس بقضية ما شغلت باله، يبدو مهزوما في داخله، يساوره قلقا متغلغلا في أعماقه، لا يستطيع تجنب عصف مشكلته ولا أن يخفي آثارها عن وجهه.

... تبدو الألوان أمام عينيه مشوشة، يكاد لا يميز بين الوان الطيف، يكاد لا يرى ما حوله سوى عتمة لا يستطيع النفاذ منها،

كمـا لا يسـتطيع أن يبـوح بمشـاعره ولا أن يسـتكين علـى ضـيمه، أرى في وجهه عقدا تفقع كدمامل الحصبة.
فـي قـرارة نفسـي؛ قـررت أن أكـون رأس الـدبوس الـذي يفجـر فقاعـات الهـم فـي أعماقـه، ذلـك مـا راود مخيلتـي وخلـت أن أسـير خلـف ذلـك الهـدف، لأكتشـف مـا خبـئ فـي جعـب هـذا المعتـوه ومـا يخفي وراءه من اسرار.
وأنـا أتبعـه، وجـدت كثـرة الانفعـالات الطافحـة علـى حركـات جسـده، عبثـا حـاول إخفائهـا وتجنـب عقـدها، قـد تكـون لتصـرفاته العبثيـة تبريـر مـا لا يـود فضـح أمـره، لكـن الفضـول المخـزون فـي داخلـي أقـوى بكثيـر مـن جبروتـه، فلـن أدعـه يفلـت مـن قبضـة يـدي أبدا.....
أظـن صـفحاته أضـحت واضـحة للجميـع بـدرجات متفاوتـة، ممـا جعـل نفسـه فريسـة سـهلة فـي مصـيدة العيـون، الكـل تبـع ظنـه دون قصـد، ترقبـه بسـجيته، هجسـت هنـاك تنـافس مـن قبـل المتواجـدين فـي تتبعـه، أو خيـل إلـيَّ ذلـك، لربمـا أصـبتُ بهـوس مـا مـن مـا أصـيبَ بـه، فبـت أتخيـل اهتمـام الآخـرين بـه قـدر اهتمـامي بـه. ذلـك مـا خُيّـل إلـيّ ومـا آلـت الحالـة بظلالهـا. وبقـرارة نفسـي وددتُ أن أنفرد به.
هـذا مـا جعلنـي أكـون أكثـر اهتمامـا بـه، علكـة صـرت أمضـغ بهـا، جعلتـه يسـيء الظـن بنفسـه وبمـن حولـه، فـي الوقـت الـذي بـه جعلنـي أسيء الظن بالمتواجدين قربه.
هـذا مـا أحسسـت بـه واسـتنتجته مـن خـلال هيئتـه المهـزوزة التـي لا تعـرف التحـاور والتـودد، الحركـات الزائـدة رسـمت شخصـيته فـي صـورة كارتونيـة كأبلـه، نـم عـن ضـعف فـي تكـوين شخصـيته، لذلك أعددته ضمن عالم الخيال الكارتوني.
فعلا أنه يشبه كركور في برنامج أفتح يا سمسم.
تقدم من صاحب البقالة قائلا:.....

- مـن فضـلك أعطينـي عللللبـة سـيجار.. و.و. قـاروووورة ماء.

قالها بنبرة الأمر لصاحب البقالة، كأنه تاق أن يهرب من العيون المبحلقة في شخصه، ود الهرب من الأماكن المزدحمة، ود الانزواء خلف هواجس الظن المتأججة، عسى أن يعيد توازنه ووضعه النفسي، وهو يدرك بأنه قد أصبح تحت المجهر تتقصده العيون بحيادة أو بفضول.

أجابه صاحب البقالة بهدوء وكياسة:...

- أي نوع من السيجار ترغب بها يا أخي!؟ ..

رد عليه بنوع من عدم السيطرة والتلعثم، أجابه:....

- أي ... أي نوع ، لا لا لا يهم!!!!!!

أخذ علبة سيجار وقارورة ماء، ثم انزوى على أريكة جانبية خلف الطريق العام، وهو يتمتم بكلمات مبهمة غير مفهومة مع نفسه، لم أتبين شيء منها، لكنها شجعتني على أن أقترب من لظى ناره، وعسى باستطاعتي أن أطفئ شررها.

صار يدخن سيجارته، يمج دخانها وينفث به في الهواء كمدخنة، منطويا على ذاته، هائما في غيبوبة تامة عن ما يحيط به، ما أن تنفد سيجارته حتى يعين ذاته بأخرى، هكذا جمع تحت الأريكة كوم قطوف سجائره.

منظره لا يسر، هشيم يحترق، تصبب جبينه بالعرق رغم اعتدال حرارة الطقس، شعرت به قد أدرك حالة الاتقاد، ربما تدفعه حالته المتكهربة إلى أن يقوم بعمل جنوني خارج حدود المألوف، كالانتحار، التهور، أو يقترف جريمة ما. هذا ما خطر في بالي في أول وهلة.

في الوقت ذاته؛ انعزاله وانشغاله فكره المتقد، يبدو كزوبعة خاملة، قد يأتيها المخاض على حين غفلة. انشغال فكره وتدخينه الغير طبيعي؛ أضفى على هيئته نوع من العبثية والتجريد، كأنه

بهيئتـه الغريبـة لوحـة تجريديـة كلوحـات بيكاسـو تختصـر مراحـل حيـاة آنفـة، أودع فيهـا إعتـام حزنـه، بكـل مـا لهـا مـن إفـرازات وتجهم كان قد أبهت بها وبمعانيها.
مـن جهتـي لـم أدعـه يختفـي عـن نـاظريَّ لحظـة واحـدة، تبعتـه منـذ أن دخـل حـدود الحـي، كنـت قـد وضـعته نصـاب عينـي تحـت عدسـة المجهـر، جعلتـه خصـما لـي، بـتُ علـى اسـتعداد لمواجهتـه وقـراءة ظرفه شاء أم أبا.
هـذا هـو طبعـي؛ اشـعر بلـذة فـي ملاحقـة هـذا النـوع مـن البشـر، كـأني أمـنح ذاتـي جـائزة تقيـيم بـذلك. كنـت واثـق مـن أنـه قـابع علـى خـزين مـن الأسـرار، والتـي بمعرفتهـا أشـفي غليلـي مـن حيـرة تكـاد تأكـل أحشـائي، فأنـا غريـب الأطـوار مثلـه تمامـا، وتلـك الصـفة أعتـز بهـا لآنهـا تجعلنـي أختلـف عـن بـاقي البشـر، أجـد فـي شخصيتي الفريدة ميزة، لا يشبهني بها بشر.
فعـلا أنـه غريـب الأطـوار، لـم ألتقـي بمثيلـه مـن قبـل، ولـم أجـد شـبيها لـه فـي السـاحة المكتظـة بالمـارة، ولا فـي تقاسـيم شـكله المكـرب، ولبسه ولون شعره الأشعث.
الصُّـفْرَةُ غـائرة فـي تعـابير شـكله المـنكمش علـى ذاتـه، فاقـدا مسـحة الجاذبيـة؛ كـأنَّ إسـفنجة ماصـة امتصـت مفـاتن الخـدود، فأفقدتـه الرونـق والبهـا. غـدى وجهـه المخروطـي عبـارة عـن عينـين غـائرتين فـي محجريـه، وأنـف طويـل شـاذ كمنقـار البجـع، توشـى وجهـه بفـم صـغير حـذفت منـه الشـفتان، أضـحى وجهـه كـدائرة القطع الناقص.
يرتـدي قميصـا فضفاضـا بلـون شـعر رأسـه، وبنطلـون جـنس أزرق متهتـك مـن الـركبتين، يغـور داخلـه جسـدا نحـيلا كطـرف القصـب، مـنحن الرقبـة، يتـراءى للنـاظر بعمـر تجـاوز عمـره الثلاثين. تهجس به كروبوت يتحرك بريموت كونترول!.
تـرى مـن هـذا الشـخص الغريـب؟ مـا هـي مشـكلته؟ بـدأت درجـة

الفضول ترتفع في ميزان العقل، ترتقي إلى حد التدخل لمعرفة خفايا تفاصيل حياته، تلك التي باتت تتورد أزاهيرها في ذهني، وتنضج ثمارها تحت ظلال الصمتْ الدائر بيننا.
وكأن أسراره توردت ونضجت، حان وقت قطافها، تود أن تفلت من بين أصابع يديه، تنسكب من مسامات وجهه المتجهم، لابد أنَّ ورطة ما عكرت مزاجه وأرهقت كاهله، فأصبح أسير قيدها.
ترى ما المعضلة التي أوصلته لحالته المزرية تلك؟....
هذا ما كان يشغل بالي، صارت الهواجس تهطل على ثرى فكري كالمطر، تخاطرني، تخترق سمائي كما هيَّ الشهب. فأنا معروف بطبعي العنيد، ذات فضول غير مبرر في معرفة حقائق ومشاكل الناس، محاولا حل عقدها. في ذات الوقت أتصف بطيبة القلب، وحسن الظن، وجميل الروحية، غايتي هي منايّ، لا أبغي الإساءة والتشهير، بل هي محاولات حثيثة أتقنها، أساعد بها العاجزين عن تجاوز محنهم قدر المستطاع، حتى لو لم تكن بيني وبينهم صلة أو معرفة مسبقة.

أشعر بأني فضولي بالفطرة، عملي يزيدني زهوا وفخرا في تحسين أوضاع مَنْ يضعون ثقتهم بي، مُركنين أنفسهم لخانة العجز.
كنتُ قد زدتُ خبرة ومعرفة بطبيعة العقد السائدة، كما كنت أهجس بكراهية بعض الناس واشمئزازهم من سلوكي وتدخلاتي الغير مسؤولة... لكن هذه هي شخصيتي، وهذا هو طبعي الذي تطبعت به منذ نعومة أظافري، لا أستطيع أن أحيد عنه.
فيما سبق كانت لي عدة محاولات في التدخل بما لا يعنيني ولا يخصني من قريب أو بعيد. لقد صادفت الكثير من الطرائف والعقد، منها الظريفة ومنها والمأساوية والمسلية. غايات الناس

لا تُدرك، ولا تستوي في ميزان الحياة، حين تبحث بجد في جيوب أفكارهم عن حلول لعُقَدِ صنعتها أياديهم أو صنعها الغير لهم، تستشعر بأن هؤلاء مساكين لا حول لهم ولا قوة، تورطوا في عقد شائكة جردتهم من المبادرة، فباتوا يعيثون في سبلهم كالحيوانات دون حلول ناجعة.
بدوري أحاول أن أجمع النيات وأفتت العقد، أبسطها، أجعلها اكثر سلاسة بين أياديهم، بدل تلك الخشونة التي تقرح الظنون والمشاعر، وتعسر الخواطر.
تجد في حياة هؤلاء أكواما من غرابيب السود وعجائب القصص، مدفونة تحت أغطية واهية، لا تحتاج سوى لمعول صغير لتظهر تلك الحقائق للأعيان، حيث بعض الوجوه تحتاج لنفض الغبار عنها لتستعيد بريقها.
قصص منوعة، فرضتها العادات والتقاليد البالية، والفروقات في مستويات الثقافة، إضافة للفاقة والتخلف الفكري والتعليمي والطائفية والقومية و...الخ من عقد نخلقها لأنفسنا.
هناك من هو جاهل من هو دارك، من هو عالم في ما يعنيه وما لا يعنيه، منهم البسيط والمعقد، منهم من هو سطحي التفكير ومعدم الأحلام، غايته لا تتعدى أطر يومه، كالساذج والمتسول الذي لا يقضم من الحياة شقفة، يبحث عن القناعة بين الأشواك الدامية دون أن يجدها، ومنهم من لا يدرك عمق الهوة تحت قدميه.... ومنهم من يمسك العصا من منتصفها، غايته مرسومة بين عينيه، قناعته هيّ أنصاف الأمور في كل شيء، بعيدا عن الخرص والطمع وضوضاء الحسد. ومنهم من لا تملأ عينيه أموال قارون يركبه الجشع.

***

على أية حال؛ أذكر مرة من المرات حاولت أن أصلح بين شأن

زوجين مختلفين، كانا متمسكين ببنود الخلاف تمسك الزاهد بصومعته، العند الزائد ومسائلة الكرامة المهولة التي تأول قراراتهم وحججهم إلى الجحيم، أدت إلى فرض التعاسة عليهم. حينها وددت أن أفك طلسم تلك العقدة، بعد أن تحول الخلاف بين الزوجين من قدحةٍ شرارة إلى إضرام نارا في البيت، كوت القريب والبعيد معا.

بطبعي أختلف عن الأخرين في التفكير، والمنطق، وحب الاستطلاع. فوضعت لنفسي خارطة اقتحام ملفهم الشائك. الفضول حفزني على طرق ابوابهم الموصد بمزالج العند، تشبثت بجدول الخلاف بصفة وسيط يحب الخير، همي هو إخماد تلك النيران المتأججة قدر المستطاع.
مع أنهم قبلا وساطتي بشيء من السخرية في بداية الأمر، إلا أنهم لم يمنعا هاجسهم من طرق باب التجربة. على الرغم من أن المعرفة التي تجمعنا كانت سطحية، لا تتجاوز حدود السلام والاحترام، كوننا نسكن في ذات الحي.
دخلت بقوة الإرادة من باب التقوى وخشية الله، حيث يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ((أن أبغض الحلال عند الله هو الطلاق))، محاولا إصلاح ذات البين بين قلبين من عباد الله. بدأت أكذب على الطرفين بشكل غير مصدق نفسي، أُلفق لهما قصص من الخيال بلسان الآخر، أصوغ لهما تعابير لطيفة أدبية وأحيانا غزلية أذكرها لهم عن قصد.
كثيرا ما أجد الغرابة ترتسم على محياهم حين أنطق بها، ربما لم يتدربا عليها من قبل، كنت أكذب في سبيل إذابة ثلوج العند والتوصل لحل وسطي، لتعود المياه لمجاريها.
يؤلمني أن أجد للتفاهة موطئ قدم في مصير بعض الناس، تودي بهم لعمق هوة، تمنع عنهم سر الحياة.

بعد محاولات حثيثة أستمرت لفترة أسابيع، وبعد جهد مضني عرف به القاصي والداني؛ تمكنت من أن أخمد لهب النار مؤقتا، متأملا عودة العلاقة لسابق عهدها.
اتفقتُ مع الزوجين على تحديد موعد الصلح في داري، كونها تعتبر منطقة حياد وسطية للطرفين، ووسط مناسب للتحاور...
في لحظة اللقاء والمصارحة، وبعد أن تركتهم يجليان غبار العصف عن حياتهم؛ حدث ما لم يكن في الحسبان؛ حصل الذي كنت خائفا منه.
النار التي أخمدتها بأساطير الكذب والتلفيق، شظيت من جديد في قش العلاقة الزوجية بجمرة تلك الأكاذيب، فبدل أن تُحل العقد؛ زادت تعقيدا. اشتد وتير الخلاف، نتيجة انعدام المصداقية في مخيط الصلح. الحقائق عرت الأكاذيب، تحولت لبنزين تغذي فتائل العُقد التي شذبت النار.
من خلال المكاشفة تبين حجم التلفيق الذي أبرمته، فبدل أن يتم الصلح حل طلاق أبدي بين الزوجين.
وفي موقف آخر لا أحسد عليه، ولا يقل عن الأول طرافة، حين راغ في ذهني قصة رجل مزاجي، زاد في تجاوزه وسطوه مع الناس. لصفة العصبية المغروسة به دور في بلورة تلك المشاكل، كصفة الحرارة في النار... لم يجرء أحدا من الناس ثنيه عن المزاجية التي يتحلا بها، ربما المزاجية بلورة تشنجاته، أو نتيجة للوتيرة التي يتصف بها تشكلت تلك المزاجية في شخصيته.. أنه مغرم بحب التملك والاستيلاء على حقوق الآخرين عنوة. كان يدرك عدوانية سلوكه، ومع ذلك تستهويه الحالة، يرعب الأخرين، يتجاوز على حقوقهم المادية والبدنية والروحية، مستغلا بنيته الجسمانية وأعصابه المتشنجة كسلاح للترهيب. مع استسلام مناوئيه راقت له سلوكياته، اشعرته بمهابة الآخرين له، في الوقت الذي تحقق له مآربه دون أن يجد

معضلة.
من جهتها كانت الناس تتحاش الاصطدام به، تتجاوز عن أخطائه، فوجدت نفسي مرغمة بالتدخل في وسط هذه المعمعة التي لا أحسد عليها، محاولاً ثنيه عن سلوكياته وتماديه في تجاوزاته الغير مقبولة.
التقيته وسط الشارع، جذبته لمقهى قريبة، أملا أن أصل معه لغايتي المرادة، شكوت له ما تشكيه الناس وتنتقده به، وددت أن أعرف دوافع تلك العدوانية عسى أن أعالجها.
حينها نظر إليَّ بعينين شزرين كأسد جامح، كان عليَّ تجنبه وتحاشيه، فالأعصاب التي تركبه، تختزل المسافة بينه وبين غريمه. فلم أراعِ مسألة السلامة، ولم أدعْ مسافة كافية تفصلني عنه، ودون سابق إنذار؛ أنفجر بركان ضرباته بوجهي، انهالت عليَّ قسوته دون أن تكون للرحمة موطئ قدم فيها، تطايرت الحروف من شدقي، لم أستطع أن أجمع شتات نفسي كي أنقذ ذاتي من كماشته.
نتيجة الصدمة ارتخت قدماي، لم تسعفني على الهرب، كدت أفقد وعيي لولا أجساد المارة التي حالت بين قبضة يديه ووجهي، تمكنوا من إبعادي وملامتي على فضولي الذي اتحلى به. حينها تذكرت المثل القائل (من تدخل فيما لا يعنيه؛ لقي ما لا يرضيه).
****
مع كل ما جرى لي؛ تمسكتُ بصفة الفضول المحببة ألي، فهيَّ كالدم تجري في عروقي، تبرز مفاتن الفكر وإذكائه، تزيل شوائب القنوط عن الجسد. بل أني زدت إصرارا ورغبةً في معرفة ماهية الفضول. أنه القدر؛ فُصِّلَ ردائه على مقاييسي، أهجس به يعبر عن حقيقة شخصيتي الغريبة، وهي تعجبني، وأنا مقتنع بها، على الرغم من إنها منبوذة من قبل المجتمع،

هكذا خلقني الله عزّ وجل، بحيث أثبتَ بذرةَ الفضول في قلب الذاكرة.
مع التجربة صار رفيق دربي، نما وكبر وترعرع مع ذاتي، طوعني لأرادته، جعلني أكتسب خبرة كبيرة في مجال فن الحياة وإدارته، أرغمني على تجنب الموبقات، غمرني بشلال سحره، حيث معرفة التفاصيل الدقيقة لمشاكل الناس وإيجاد الحلول والمشورة لها، لهو السحر بعينه.
أراه لامعا من وجهة نظري، النشوة تغمرني حين أفك كرب عاجز جزلته وكتمتْ على أنفاسه العقد. تتعاظم اللذة حين أهجس بذاتي قد تشبعت خبرة يستعين بها الآخرين.
الفضول جعلني حذرا في كثير من المواقف التي صادفتها، خاصة تلك التي تجبرني على الاحتكاك بالمتهورين والمتنفذين، جعلني واعيا لمدى خطورة الخطوة التي أرجوها، أتَوَقى عبث القريب، مدركا الينابيع المالحة بالقدر والحساب.
تلك الشخصية الهلامية ربما لا تعجب أحدا، لكنها تعجبني، لم استطع أن أحيد عنها أو أبدل جلدي، أشعر بالفضول هذب شخصيتي وصقلها.
الفضول رقم مجهول لذا يبتعد عنه الناس، أما أنا فقد عرفت أسراره وأسسه ولغزه، حللت ماهيته وجذوره، جزلت ابعاده وفسرت مكنوناته، رسمت له شكلا هندسيا في الذهن، لن يفهمه غيري. اكتشفت عناصره وتفاعلات ذراته، هجست بأن ذرته يختلف عددها الذري عن جميع العناصر، كان بودي عمل جدولا خاصا بمشاكل الناس، كجدول منديف الخاص بالعناصر الكيميائية، أثبت فيه غرائب وعجائب ما أفرزته تجاربي، لأضع حلولا جذرية لكل مشكلة.
هذه هي الحقيقة، وهي حقيقتي، لابد أن أقتنع بها وأحبها كما يجب، فهيَّ هويتي وهوايتي أمام المجتمع، التي تميزني عن

سائر البشر.
***
أخذت كأسين من الشاي، تقدمت نحو ذلك الغريب بشغف التعرف عليه، عيناه شاخصتان باتجاهي، واجفتان، حائرتان، تبصران خلف المدى، أهجس به لا يراني وأنا متجه نحوه، لانشغال فكره، كأنَّ عيناه مغشية بهالة سوداوية، منحرفة عن مسارات النظر.
امرا ما يشغله، يعجز أن يدرك سكينته، يعجز أن يمنع صدى القلق والحيرة عن ذاته، تائه في دوامة الضياع، ربما الحالة التي هو فيها ستأخذ من صحته الكثير، ومن ماله الكثير، قبل أن يستجمع قواه ويعيد لنفسه توازنها.

ترى هل أستطيع انتشاله من وضعه المأسوي؟
سؤال شغل تفكيري!...
ومن وجهة نظري ونتيجة لتراكم الخبرات السابقة، وضعته في ثلاث زوايا، رسمت له ذلك المثلث المرعب والذي لا يمكن أن يفلت منه. خمنت احتمالات مشكلته بالشكل التالي، وحسب الأولوية.
وهي :-
أولا: أما أن يكون قد فقد عزيزا من أسرته، أو أحد أصدقائه أو زوجته..... وهو الاحتمال الأقوى، كون الحزن والارتباك واضح على وجهه وهيئته، السيجارة تكاد لا تسقط من شفتيه المغشية بالدخان.
ثانيا: ربما فقد وظيفته، لذا صار يضرب أخماسا بأسداس، فتشتت فكره بضبابية مستقبله..... وهذا احتمال معقول أيضا.
ثالثا: قد يكون فقد مبلغا جيدا من المال لا يستطيع تعويضه..... وهذا احتمال ضعيف جدا قياسا لهيئته، لكنه أمر غير مستبعد.

على أية حال سلمت على صاحبنا المهموم..

- السلام عليكم ..

لم يجبني، التفتَ يمينا و يسارا! غير مصدق بأن السلام موجه له!

رد بهدوء: ...

- تكلمني ....!

ابتسمت بوجهه قائلا:....

- وهل يوجد غيرك في المكان؟ ما بك يا أخي! خذ أشرب الشاي.. هدئ من روعك.. أراك مهموما جدا.

أخذ كأس الشاي بيد مرتجفة، عيناه تخترق الصمت، وهو ينظر إلى وجهي نظرة استفسار.. كأنه يقول لي :... من أنت؟ .. ماذا تريد؟ كأنه يود أن يتذكرني أن كنت قد مررت في سكة حياته يوما ما. قال بصوت ناعم منكسر، كأنه يتأمل من ينقذه.

- أأنت تعرفني؟

- لا لا يا أخي، ليس بالضرورة أن أعرفك، الناس لبعضها.. لكني أتشرف بمعرفتك ..

ثم قدمت له نفسي ...

- أنا الصحفي ميلاد، ألم تسمع باسمي؟ أعمل في صحيفة الرياضي منذ سنتين.. وأنت من تكون؟

لاحظت الكثير من علامات الاستفهام والاندهاش رسمت على وجهه، ترى بم أنشغل تفكيره في تلك اللحظة.

قال لي :- ....

- حقا أأنت صحفي رياضي؟

- نعم يا أخي، وما الغريب في ذلك ؟

أحسست بأنَّ له ولع في الرياضة، قال:-....

- أنا صصصبريي --- صبري --- أعمل في بلدية المدينة! كنت قد انتقلت لها منذ شهر تقريبا.

- أهلا وسهلا بك، تشرفت بمعرفتك....

شعرت بان الأمور ميسرة لمعرفة مقاصد حزنه ومشاكله الدفينة، وهو غرضي وغايتي التي أجاهد من أجلها. شعرت بأن الفرصة مواتية للدخول معه في تفاصيل تجهمه، أسمه صبري، لكنه من الواضح أنه لم يكن صبورا على مشكلته. فبدأت باستغلال الفرصة وطرح بعض الاسئلة عليه. سألته:-....

- هل كان لك ولع في الرياضة فيما سبق، أقصد هل مارست الرياضة، هل تحبها؟
- طبعا.. طبعا يا أخي لدرجة الهوس!

عجيب أمره، هيئته تدل على أنه لم يشاهد ملعبا في حياته، ترى ما الذي يجعله يتولع بها؟

- هل مارست الرياضة يوما ما؟
- أنا... أنا عداء سابق.. كان الناس يلقبونني بـ صبري طياره – هههههههههه.
- إذا ما بك؟ لمَ أنت متجهم وحزين جدا؟.. أن كنت تود أية مساعدة فأنا جاهز، سأكون بخدمتك دون تردد، فقط أفتح لي صدرك، وعبر لي عما يجيش في خاطرك.
- وهل يهمك حزني؟
- أكيد!! يمكنك أن تخبرني بما يعيق مزاجك، وبإمكانك أن تعتمد عليّ.
- وهل تكتم السر؟

تبادرت لذهني أمورا جمة، طالما هناك سرا لا يود أن يفتضح أمره، إذا لابد هناك فجوة واسعة في حياته يود ترميمها، قد تكون في مجال المرأة، أو في مجال السياسية أو أمور أمنية، أو قد وقع فريسة فخ أو نصب ألمَّ به فخسر ما يملك، أو .....لخ. توقعات كثيرة خطرت في بالي بددت كل التوقعات السابقة وألتي عولت عليها في مثلث برمودا.

فقلت له بلا تردد....

- أطمأن يا أخي سرك في بير، أخبرني ربما أستطيع أن أساعدك به.
- لا لا لن تستطيع مطلقا مساعدتي، لا أنت ولا غيرك أيضا!

ترى كم حجم المشكلة التي فاقت طاقتي وطاقة الجميع، بحيث لن نستطيع تقديم حلولا لعقدها.

- يا أخي جربني ولا يهمك!
- المشكلة فوق التحكم بها، أنه قدر وقد حسم! أنه الحظ السيء للغاية! وقد وقع ما لم أتوقعه مطلقا في هذا اليوم المشؤوم

كنت أصغي له وهو يسترسل بحديثه، وكل همي وفكري أن أمسك برأس الخيط الضالع في هذه المتاهة التي هي أمامي، والمتمثلة على شكل هيكل أنسان ميت، فاغر أذنيّ وفمي بوجهه.

- نعم أسمعك أكمل .....
- أنا مُولع الى درجة الجنون، بالفريق الكتلوني (برشلونه) الذي خسر هذا اليوم بطولة أوربا..

وبدون أن أصغي لنفسي، وبدون لباقة وتحضير مسبق صرخت بوجهه !!

- نعـــــــم!.... كل هذا الحزن والتجهم والكآبة لخسارة فريق كرة قدم!.... وما دخلك أنت؟؟ لقد شغلتني ساعات من المتابعة في أمر تافه، الله لا يوفقك، كم أنت تافه وغليظ وثقيل دم.

لم أدرك حجم انفعالي وقوة صراخي بوجهه، بحيث كل الذين حولي انتبهوا على ذلك، الصاعقة نزلت على رأسه، أحرقت هشيم فكره السطحي عن بكرة ابيه.

لـم يسـتطع أن يتـدارك نفسـه، أفتقـد زمـام أمـره، تـرك مكانـه وهـو يجـري بقدميـه الهـزيلتين باتجـاه الجهـة المعاكسـة، مبتعـدا عنـي ومن غير أن يلتفت خلفه، كأنه أدرك حجم تفاهة فكره.
حينهـا أدركـت ؛كـم مـن بشـر تـرك همومـا جمـة تخصـه وتخـص الـوطن والبيئـة والمجتمـع ولـم يكتـرث لهـا، وبـدل ذلـك تمسـك بـأمور دنيوية تافهة لا تجدي نفعا ولا ضرا.
صـحيح النـاس معـادن، ومعـدن كـل شـخص بيئتـه وثقافتـه ودينـه. فكـم مـن معـدن رخـيص الـثمن، وكـم مـن معـدن بـاهض الـثمن. فالأنسـان مطبـوع علـى الخطـأ، والغبـي الـذي يتمسـك بعنجهيـة تـديم عليه أخطائه.
(التافهون وحدهم منشغلون بقضايا لا تهمهم كالذباب).

بياض الدم

خلال مسيرة عملي الطويلة كطبيبة، لم أتوقع أن أصادف مشكلة لا أستطيع تجاوزها، أو أعجز على لملمة أجزاءها، كتلك التي داهمتني في أحدى صباحات أيام الجمع.. مشكلة اختلقت من دون أساس منطقي، استندت في تكوينها على محور الجهل، تطورت فصولها وتعقدت خيوطها بسرعة البرق، ألتفت على أعناق أصحبها، حتى صارت لها عقد شائكة تغيظ الجميع.

في حقيقة الأمر المشكلة أرهقت كاهلي نفسيا، انبثقت بمثابة قدر أحمق لا ينطق إلا صمتا.. صبت جام غضبها على عواطفي وعواطف زملائي في المشفى، جعلتني مكتوفة الأيدي، بحيث لم أستطع فعل شيء أُصاد نبال العقدة؛ إلا بعد حين.

عقدة شائكة، هلامية، امتدت جذورها لعمق التقاليد الخاوية، الغير مدروسة، وهي عقدة مترسخة في بطون المجتمعات الشرقية والدينية بشيء من الجهل وعدم الاكتراث وعدم المفهومية، أنها مشكلة نفسية صرفة، تحتاج لحلها جهود الأخيار والمثقفين من المجتمع.

جلست باكرا على دوشة صراخ غير معتادة على سماعها، متركزة في صالة الطوارئ. أحيانا الأنسان يتفاجأ بأمر آني لا يعرف كيف يتصرف معه بالحظة، أين يتجه؟ ماذا يفعل؟ من يستشير؟ الخطوة الأولى ضرورية لفك طلسم اللغز المحير.

قد يدور المرء في دوامة لا يخرج منها بنتيجة، حتى يركن

إلى قرار صائب بعد حين. قد تلهمه فكرة سريعة وآنية لحلها... ذلك يتوقف على خبرة وبراعة فكر الأنسان وثقافته واهتماماته بالعموميات والخصوصيات، وعنونة القضية. وقد يسيء الظن في حل العقدة، فلن يخرج منها إلا وهو غارق بهم أكبر.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة فجرا من يوم الجمعة، والتي صادفت ليلة خفارتي الأسبوعية في مستوصف الرحمة، الكائن في جانب الكرخ من بغداد. كنت في ريبة من أن تصادفني مشكلة ما عويصة لا استطيع اتعامل معها بحكمة وحذق. قد لا أكون عند حسن ظن من يحتاج إلى المعونة اللازمة بشكل لائق ودقيق، وقد ألام على تقصير غير مقصود، من قبل المسؤولين أو المراجعين، إضافة لفقدان الراحة وحالة الشد النفسي والعصبي التي سترافقني، فأنا لا أود أن أكون في محل مواجهة مع المريض وأهله.

المشكلة تكمن في السلوك العام، حيث كل منا ينظر للموضوع من وجهة نظر مختلفة، دون تقدير حجم المسؤولية الملقاة على عاتق الإدارة، دون تقدير العطاء المبذول من قبل عناصر المستوصف بشكل عام.

أذكر في أحدى المرات كانت قد تعرضت زميلتي لعنف وتهديد وتوبيخ وقذف وشتم من قبل أهل المريض، أحيلت إلى المحكمة القضائية؛ لأنها لم تستطع إنقاذ طفل من الموت بعد أن دهسته عجلة مسرعة... صحيح أنه وصل إلى المشفى حيا، لكنهم لم يراعوا حجم الكارثة التي تعرض لها جسده من نزف داخلي لا يمكن السيطرة عليه، مما أدى لوفاته.
الكثير يتصرف في مثل هذه المواقف بعواطفه لا بعقله.

بدأت المشكلة في تلك الليلة المشؤومة مع شرارة غبش ذلك

اليـوم، كـان عنبـر المستوصـف صـغيرا جـدا، يبعـد عـدة كيلـو مترات عن مشفى اليرموك الرئيسي.

للحـي؛ مكـان جميـل، فيـه إطلالـة مشـرقة علـى نهـر دجلـة، فيـه بعـض المواقـع التاريخيـة المشـرقة مـن زمـن بغـداد الجميـل أبـان العصـر العباسـي، والحقـب التـي تلتـه، فيـه موقـع راحـة واسـتجمام، وحـدائق واسـعة، إضـافة لفنـدق حـديث يطـل علـى الشـاطئ، كثيـرا مـا يسـتخدمه العرسـان الجـدد لقضـاء ليـالي شـهر العسـل فيـه. لهـدوء المنطقة والسكينة، وللإطلالة الجميلة، حافزا لاستقطاب الزبائن.

انتفضـت عـن سـريري، مذهولـة، أفزعنـي الصـراخ الهـادر فـي الصـالة، جهـزت ذاتـي لمواجهـة الأمـر فـي ظـل ثـوان معـدودة، ارتـديت معطفـي الأبـيض، علقـت سـماعة الفحـص فـي رقبتـي، انتعلت نعلي الطبي، ثم هممت بالخروج من الغرفة على عجل.

للعجلـة التـي كنـت عليهـا افتقـدت تركيـزي، تعثـرتُ قـدمي بكرسـي صـادف أن يكـون أمـامي، فلـولا أن أسـتند براحـة يـديّ على جدار المقابل؛ لأرتطم وجهي بالجدار.

أمسـكتُ مقـبض بـاب الغرفـة بيـد مرتجفـة، فتحـت البـاب بقـوة لأهـم بـالخروج... ففـي لحظـة التـي فتحـت بهـا البـاب؛ اسـتقبلت الممرضـة نـدى، كانـت مذهولـة، مرتبكـة، حاولـت أن تشـرح لـي طبيعـة الموقـف وهـي تتلعـثم بكلمـات، تمكنـتُ مـن فـك طلسـمها بصعوبة. حيث قالت:..

- د .. دكتـورة رجـاء ... أسرعـي، عروسـة مغشيـة بدمائها، قسى عليها زوجها في ليلة دخلتها.

حين إذ خطرت في بالي الاحتمالات المتوقعة.

قـد تكـون العروسـة صـغيرة السـن، لـم تحتمـل عنـف الرجـل فـي ليلـة دخلتهـا، هـذه حالـة شـائعة، وهـي تحـدث بـين الأزواج قليلـي الخبـرة والتجربـة وقليلـي الثقافـة أمـام الانـدفاع الغريـزي للجـنس...

قد تكون مكرهة على الزواج من رجل لا تحبه، أو برجل يكبرها سنا، فعرضت نفسها للقسوة... قد تكون غير متهيئة نفسيا للزواج، فأصيبت بانهيار عصبي... وقد تكون هائمة بعلاقة حب مع شاب آخر لا تستطيع أن تفصح عنها فتفضح أمرها.
كل الاحتمالات واردة.
تقدمت نحو الصالة التي لا تبعد عن غرفتي سوى 50 مترا، كان صوت الرجل غليظا يزمجر كالأسد على فريسته المنهكة القوى، تلك التي لاحول لها ولا قوة، الصمت كاتم على أنفاسها.
تمكن العمال والحرس والممرضين في المستوصف من أن يحيدوا الزوج الموتور عن زوجته؛ ليكونوا حاجزا بينهما، بل أنهم فعلا احتجزوا العروس في غرفة الحرس الواقعة في مدخل الصالة.
وحين دَخلتُ الصالة؛ وجدت العروسةُ التي كانت تأنُّ من شدةِ الألم الجسدي والنفسي منهارة عصبيا ونفسيا تماما، مرمية على سرير المرضى كدمية بلا حراك، تزفر الآهات بألم نفسي عميق، يعبر عن حجم القسوة التي تعرضت لها، والجرح الكبير الذي تَعَشَّقَ في جوارحها.
من المعروف في حالات من هذا النوع الذي يكون فيه العنف سيد الموقف، لابد من أن تتدخل الشرطة قبل أن يتم أيَّ أجراء وقائي أو علاجي، سوى بعض الاسعافات الأولية التي لابد منها لوقف النزف أن وجد، أو إسعافها بإبرة مهدئة كـ (البروفتين أو التيفاني أو الأتراكس) حتى تروق المريضة وتنسى آلام مصابها جراء العنف أو التعسف الذي لحق بها، لتتجاوز حالة الانهيار العصبي.
ومن الطبيعي تم إخبار الشرطة التحقيقية من قبل إدارة المستوصف، علما أن مركز الشرطة التحقيقية لا يبعد سوى

200م عن المستوصف. ولم تدم المدة طويلا حتى وصل ضابط شرطة برفقة أثنين من معاونيه، أحدهم شرطي من غير رتب حاملا بندقيته على كتفه، والآخر برتبة عريف (رقيب) جاء بصفة كاتب، يحمل ملف التحقيق بيده الأيمن.

تم معاينة الكدمات في وجه العروسة وجسمها، وتسجيلها في دفتر الحوادث من قبل العريف، فيما كان الضابط يستنطق العروسة وهي تجيب بصوت خافت مبحوح.

كان هناك جرح بليغ تحت الجفن الأيمن، ونزف في شفتها السفلى. إضافة لكدمات في اليدين والقدمين والظهر، كانت تنطق بصعوبة، تصاحبها آهات ألم وحزن داكن، يخزق جوارحها كالسكاكين.

تمتمت بكلمات ذم وسب موجهة لزوجها، وصفته بالـ (وحشي، غبي، جاهل - يتهمني بشرفي، والله أني بريئة من كل تهمة كالها لي هذا الكلب.....الخ).

المشكلة بدأت في ليلة دخلتها؛ تلك التي انتظرتها طويلا منذ اللحظة الأولى لفهمها معنى الحياة، تلك التي يبدأ فيها الجزء الثاني والأهم من فلم السيرة الذاتية للمرأة بعد أن يسدل الستار عن الجزء الأول الممهد من عزوبيتها.

بعد أن طويَّت حياة اللعب والعشق والمراهقة؛ تأتي أهمية الفصل الثاني من سيرة الحياة، أنها متخومة بوقائع حلوة ومرة، معلقة بـ خترفة أحلامها البنفسجية. مرحلة تنغرس فيها الجدية والعمل والتخطيط للمستقبل البعيد، حياة زوجة وأمومة وأولاد وعمل وتربية.

أسمى هدف للمرأة في الحياة؛ هو صفاء العلاقة الزوجية والعيش بهدوء وكرامة تحت ظل زوجها، أن تنصهر بعواطفه في علاقة وطيدة، أن تبلغ ذروة العلاقة حين تنجب منه طفلا أو أطفالا، تكيله لها جدارا تستند عليه في ترتيب أولويات حياتها

في رحلتها الطويلة من السِفْرِ القادم.
المرأة دون طفل تعني غرفة دون أثاث، تعني حياة فارغة من المتعة والبهجة والحركة، تعني قفارٍ أجردٍ لا روحٍ فيها، حياة ناقصة لغة الطبيعة، لأن الأمومة لا تتجسد في كيانها فحسب، فهي عالم مجهول لن تفهمها إلا من دخلت حدودها وتنفستْ عبقها، ومارست دورها فيها كسيدة.. حين إذ تتجسد المعاني الحقيقية للمرأة وللأمومة، والتي بمضمونها تعتبر قمة المراحل العابرة في حياة المرأة، أو المعنى الحقيقي للسعادة عند المرأة.

فالحياة بعد الزواج تعني أسرة، تعني كيان ومستقل، تعني ديمومة الحياة نفسها؛ الأنسان بعد الزواج لا يفكر إلا بمخين ولا يعيش إلا بقلبين، لا يتأمل ولا يحلم أو ينسجم مع شريكة حياته حتى يتحولان لمزيج مخلوط من والوشائج والسعادة والألفة المشتركة في بودقة واحدة، يندمجان بمصير مشترك وبكيان واحد، يتقاسمان الأحزان والأفراح كرغيف الخبز.
كانت قد انتظرت الزوجة فترة عزوبيتها طويلا؛ حتى تمكنت من أن تمسك بتأملاتها وتُكسر مرآة عزوبيتها. بينما ابتدأت مشكلتها الحقيقية وتعقدت أمورها في ليلة دخلتها، حين لم تنزف بكارتها سوى بياض الدم!.
لم تتلون فوطتها البيضاء بحمرة الشرف.
في ذلك الوقت جن جنون الزوج، وبدون أن يدع لها فرصة الدفاع عن نفسها؛ أنهال عليها ضربا، لم يدعها تنطق بكلمة واحدة، أنقض عليها انقضاض الأسد المتهور! مستخدما العنف مبرح والكلام البذيء وهي مكبلة تحت قدميه كالدجاجة المطروحة للذبح. لم يسعفها وضعها ولا قوتها في الدفاع عن نفسها، لم يسألها عن حقيقة الأمر، بل أنه لن يقتنع حينها بأي

عذر تنطق به.

سحلها من شعر رأسها أمام الملأ، قادها كالنعجة إلى الشارع العام وهي تتبعه بخطوات متراخية لولبية، ملتفة الساق بالساق، قابض على يدها الرفيعة التي تشبه طرف عود من القصب بكماشة غليظة.

تلك الحورية التي تأملها كثيرا فيما سبق، باتت تتلوى بين يديه كثعبان نهش رأسه، ما فتأت انهارت دموعها وصخب أنينها الذي لم يسعفها على جلدها.

دفعها بقوة إلى داخل عجلة التكسي، هددها بالقتل والوعيد، بصق على وجهها الناصع أمام الملأ، كأنه ما كان ذاك الوجه هو ذاته الذي توضأ به بتوسلات زمنا؛ حتى رضخت لطلبه ورضيت به زوجا، تلك التي تأملها وخنع لها حتى لانت لرغبتها.

من طباع الناس؛ لا تهتم ولا تتدخل في شؤون الآخرين دون معرفة مسبقة، لذا تجدهم كانوا ينظرون إلى فعلته باستغراب، للوحشية المفرطة المستخدمة معها، وكأنهم في مشهد تمثيلي حي، لذا تجد الآراء متناقضة فيما بينهما، أحدهم ينصف الرجل وآخر ينصف المرأة، والحقيقة معلقة في غارب الظن.

تقطرت الدماء من ثنايا ثوبها الرمادي البراق، ذات الأشرطة الصفراء.. جعلها تفقد الإحساس بالألم، بل افتقدت حواسها الخمس، ناهيك عن أحاسيسها الداخلية المنهارة ومشاعرها المتبخرة.

افتقدت الألم أمام عصف الشرف الذي داهمها بها على حين غفلة، ألقى أشرعة صواريها في وجه الأمواج العاتية، أجتاحها طوافانا من السخط؛ قبل أن تلملم أوراق الحلم، حين غربت شمس سعادتها في يوم ميلادها.

تحولت لقطعة جماد، لا روح ولا نفس فيها، لا تسمع، لا

تـرى، وطـأة الصـخب والصـراخ طقطقـت هواجسـها، الضـرب المنهمـر عليهـا كـالمطر؛ أفقـدها صـوابها، بكفـه الغليظـة ثلـم فاهها، أخـرس لسـانها، صـبغ شـفاهها بحمـرة الـدماء، ووجههـا بلـون الزعفران والخجل.

حينهـا دخلـت فـي حالـة غيبوبـة، بوقـع الصـدمة عليهـا التـي ارتقـت درجـات الشـيزوفرانيا، لـم تـع حالهـا بعـد أن ركنـت علـى دكـة الصـمت، لـم تسـتعيد وعيهـا إلا بعـد أن رش وجههـا بمـاء بـارد، حينها زرقت بحقنة مهدئة وقتية لتستعيد ذاتها.

كسـفت شـمس سـعادتها، قشـعريرة دبـت فـي جسـدها، أضـحت تتـراقص بسـرها مـن شـدة وقـع الصـدمة. لقد فسـد حلمهـا الفتـي الـذي طالمـا حلمـت بـه منـذ الصـغر، فسـد فـي يـوم تعتبـره الأسـمى فـي حياتهـا، كانـت قـد فكـرت بـه منـذ أن أمـد، منـذ أن أقـتحم فكرهـا سلطان الوعي ودغدغ قلبها شغف الحب.

جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن...

الـزوج الموعـود لـم يكـن بمقـدار الحلـم، حـال بريـق فرحهـا لوشـاح حـزن ومنهـل دمـوع علـى بسـاط الخـد، جعـل لحياتهـا عنـاوين بـؤس شتى.

أنهـا أول الكَبَـوات التـي لـم تخطـط لهـا مـن قبـل، أثقلـت كاهلهـا، نزلـت كالطامـة علـى رأسـها، كَسـرتْ مـرآة عفتهـا التـي طالمـا كانـت أمينة عليها من إفراز الحشرات الخبيثة.

أصـبح للهـم السـليط حبـل التـف علـى عنقهـا، قيـد حريتهـا، فلـن تمشـي كمـا سـبق، ولا تضـحك كمـا سـبق، ولا تفكـر كمـا سـبق. تجربـة مريـرة دكـت عفتهـا، جعلـت مـن جلـدها حسـيرة لمـداس الزمن

****

المسـألة تحتـاج لمرونـة، لمطاطيـة المجتمـع، لقواعـد علـم

الـنفس، فالعقـدة لـن تنجلـي رواسـبها مـن الأذهـان والقلـوب دون فعـل مـن قبـل الـزوج ونـدم. بـالأحرى تحتـاج لقـدرة إلهيـة لتـرميم صدأ الجدران، نتيجة العبثية المفرطة في التعامل.

تلـك المخلفـات المترسـبة فـي قيعـان المجتمـع هـي ذاتهـا مـن صـنعت المشـكلة، وقـد نحتـاج لجيـل أو لأجيـال لتشـطف ترسـبات العقـد مـن أحـواض المجتمـع، العـرف والتقاليـد الغـائرة فـي المجتمـع، زادت مـن تعقيـد المسـألة، فهـي لـن تحتمـل الإسـفاف فـي إدارتهـا مطلقـا، وليسـت بـالأمر الهـين تجـاوز تأثيرهـا، ولا هـي بالسـهل الممتنـع للقبـول بهـا، هـي مـن العقـد التـي تحتـاج إلـى تنـازل القمم عن مواضعها.

المشـكلة فيهـا مـن الهشاشـة مـا يغـوص بهـا العقـل، ومـن الصـلابة مـا يتكسـر عليهـا العظـم، أعجـز بوصـفها لتشـبثها بملابسات الأعراف والتقاليد الدفينة.

فـي واقـع ظنـي كـدكتورة؛ لـم يكـن مـن السـهل أن أغـض الطـرف عـن اسـاس العقـدة، أنهـا مـن الأقـدار المليئـة بالقسـوة النفسـية والعنـف وقلـة الحيـاء، فيهـا تعسـف أعمـى، بـرع فـي حفـر تجاويفها الظن السيء والتخلف والجهل.

أمـا الرجـل الـذي كـان يرعـد ويزمجـر كبطـل همـام، واثـق مـن ظنـه وتصـرفاته، كـانَ يلـح الحاحـا كبيـرا علـى أجـراء الفحـص الـلازم لعروسـته، ود أن يثبـت للجميـع بانّـه لا يسـتحق الملامـة علـى فعلتـه الشـنيعة. كـأنه لا يـدرك للحـق سـطوع يختـرق حـاجز الظلم مهما جنَّ وعنا، للحق نور الكل يراه من خلف الجدار.

الحقيقـة دائمـا مـا تكـون كحيلـة العـين، تجـذب الانتبـاه إليهـا، كفتـاة بتـول أبنـة العشـرين سـنة، لا تكبـر ولا يخمـد بريـق ألقهـا، وأن كانـت مدفونـة تحـت صـرة الحـرج والخجـل، الحقيقـة هـي أشـبه بولادة هلال جديد، تبحث عنها بين هباب الشك.

ود الـزوج بعنـاده وصـلافته أقنـاع اللجنـة الطبيـة بصـحة

ادعائـه، ود أن يثبـت للآخـرين ظـن السـوء بهـا، أن يطعنهـا فـي عفتهـا وشـرفها بـلا دلائـل مقنعـة. كـان يتوقـع فقـدانها بكارتهـا قبـل أن يلج بها.

تـرى بـأي روحيـة تصـرف ؟ مـاذا سـيجني مـن وراء فعلتـه النكـرة غيـر العـار واللـوم والكراهيـة. أنـا أتكلـم كـأنثى ولـيس كدكتورة... أنانيته لا تفسر إلا بالتساؤلات التالية!!

مـا الغـرض الحقيقـي وراء سـعيه المسـتميت بالتنكيـل بهـا؟ القـذف المقـزز بشـرفها؟ التمسـك ببنـد الفضـيحة؟ ألـم يـك السـكوت والتـأني قلـيلا هـو أفضـل الطـرق؟....لقـد شـوه صـورته قبـل أن يشـوه صـورتها أمـام المجتمـع، تصـرف دون لياقـة ولباقـة، دون أن يدرك تلك العواقب ستعود عليه.

هل فعلا أنها خيبت أمله في حلمه الذي كان ينشده؟

هـل فعـلاً أنـه أنـتقم لشـرفه؟ أم للمَبـالغْ التـي صـرفها علـى عرسه؟ ترى أين تكمن الحقيقة المدفونة في صندوقه المغلق؟

لـو فرضـنا بأنـه فعـلا كـان يبحـث عـن الشـرف!.. مـا هـو مفهـوم ومقياس الشرف الحقيقي لديه؟

يعـرفْ الشـرف: - بأنـه الهويـة الشـاملة للإنسـان، والـذي يعبـر عـن تكوينـه النفسـي والروحـي والخلقـي. ويكـون بـارزاً عبـر سـلوكه الشخصي، والاجتماعي.....

وبهـذا المعنـى: فـأن الشـرف الحقيقـي يعنـي الكرامـة، والنخـوة، والنزاهـة، والصـدق، والأمانـة، والمـروءة، والشـجاعة، والإحسـان، والعفـة، والتضـحية بالمـال والنفـيس، مـن أجـل القـيم التـي تتظـافر مـع بعضـها، لتسـمو بالإنسـان، وتضـعه فـي مرتبـة التقدير والإجلال.

بهـذا المعنـى فـان الشـرف كهويـة لا يتجـزأ أبـدا، سـواء علـى

المستوى الشخصي أو الاجتماعي. فمن كان يحمل تلك الصفات، لابد أن يكون شريفا بـ أعلا المراتب، وخاصة الوطنية منها. فالعلاقة صميميه، جدلية، لا تنفصم أبدا في مراتب الشرف الرفيع.

قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتي يراق على جوانبه الدم

وقال ميخائيل نعيمة: شرف الإنسان في إنسانيته؛ فان افتقدها، فقد شرفه وتجرد من إنسانيته.

وقالوا:- كنز الشرف أفضل من كنز الذهب.

ومن علامات الشرف إغاثة الملهوف، كأستجابة المعتصم لنداء امرأة أسيرة في عموريه حين صاحت: (وا معتصماه)، وعلى أثرها؛ خرج على رأس جيش عرمرم لإنقاذها، وكانت تلك الصيحة سببا في فتح عمورية.

ومن علامات الشرف؛ عزة النفس... يروى عن قيس بن زهير حين أصابته فاقه، لم يمد يده لأحد قط، فلم يأكل إلا من الحنظل حتي ضعف ومات!.

وللشرف معان كثيرة:... فالعالِم، والحاكم العادل، والمجاهد في سبيل الله، والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه، والصانع، والتاجر، والمزارع متي ما كانوا أمناء في عملهم فهم شرفاء.

والشرف الذي يقصده البعض بانتقائية هو ما يتعلق بسلوك الفرد، فهو جانب من جوانب الحياة، لا ينبغي حصره في زاوية ضيقة مقرونة بسوء سلوك الذكر أو الأنثى، وهذا المفهوم يمثل أحدى فضائل سلامة الفرد والعائلة وصلاحها، والتي بمعناها الواسع تؤدي إلى سلامة وإصلاح المجتمع.

فمن المؤكد أن كل من يسعى في الأرض فسادا، رجلا كان أو امرأة ومارس الرذيلة وأنتهج طرق الفاحشة، وهي متشعبة ومتنوعة كغش الناس، أو إهانتهم، قتلهم، حرقهم، اغتصابهم، تعذيبهم، مصادرة أحلامهم وطموحاتهم ومستقبلهم وأموالهم، ومن يتحالف مع أعداء الوطن، أو يستقوي بالأجنبي؛ هو عديم الشرف والأخلاق! فاقد لمعاني الكرامة والإنسانية! ..هذه هي المقاييس الحقيقية للشرف. والتي ممكن أن نقيس على آثارها تصرفات الآخرين.

ترى أين نضع العريس بفعلته الشنيعة أمام عروسته، على ضوء تلك المقاييس والمبادئ؟

من المعروف لا زال دليل شرف البنت في معظم المناطق العربية والشرقية، هو بعض قطرات الدم التي تتقطر في ليلة الزفاف، وهذا دليل على جهل البعض منا في نوعية وشكل غشاء البكارة لدى المرأة. غشاء البكارة يختلف من فتاة لأخرى من حيث الشكل، والنوع، وكمية الدماء التي تنزل منه عند فضه.

هناك سبعة أنواع لغشاء البكارة! حسب المفهوم العلمي وهي ..."الحلقي، المطاطي، الهلالي، الغربالي، الهدبي، الفستوني، الحاجزي"

ويعتبر الغشاء الحاجزي: هو النوع الذي ينتج عنه نزف ملحوظ، وهذا النزف يحدث فقط في حوالي 14.5% من الفتيات- ولا يعتبر نزفًا بمعنى تدفق الدماء الغزيرة كما تظن بعض الفتيات، ولكنه فقط يكون مرئيًة، كدم أحمر لا يشبه دم الدورة الشهرية، كما أنه يكون "أكثر سيولة" من دم الدورة الشهرية.

أما بالنسبة للغشاء المطاطي: فإنه يحدث فتحة ليست

بالصغيرة، تسمح بحدوث الجماع وانتهائه دون أن يحدث قطع في نسيج الغشاء ذاته، ولا ينفض إلا مع الولادة الطبيعية.

أما النوع الحلقي، والهلالي: فهما متشابهان، حيث يحدث قطع تدريجي في الغشاء مع تكرار مرات الجماع، وبذلك يحدث خروج لبعض نقاط الدم القليلة، ويكون ذلك في أغلب الأحيان تدريجيًا، حيث إن ذلك يتم بشكل متكرر عبر مرات الجماع الأولى؛ حتى يتم استقرار وضع النسيج الخاص بالغشاء على الوضع النهائي له.

أما الغشاء الغربالي: فهو عبارة عن نسيج شبه كامل، وهذا النوع ينتج عنه بعض نقاط من الدم الأحمر قليل اللزوجة، ويحدث فض الغشاء مع أول عملية جماع.

ويوصف النوعين(الهدبي، والفستوني)، بأنهما يتشابهان من حيث الشكل والتركيب، ولذلك فإن فض هذين النوعين يكون عادة مع اللقاءات الجنسية المتكررة، أي أنه ليس من الضروري أن يفض ذلك الغشاء منذ اللقاء الجنسي الأول، ويفرز نقاط دم قليلة جدًا، وأحيانا كثيرة يتم فقدانها في القناة المهبلية ذاتها أثناء استمرار الجماع، بحيث تظهر كإفرازات مكونة في اليوم التالي للجماع، وأحياناً يمر إفرازها مرور الكرام دون ملاحظة أي شيء من ذلك القبيل، ويظل العروسان معتقدين أن العروس لم تنزل دمًا.

كان لا بد من حجر العريس في مخفر الشرطة! للقسوة التي أستخدمها ضد عروسته. وبنفس الوقت نكون قد حافظنا عليه من انفعال أهل العروسة، الذين لابد أن يكونوا على علم بما جرى لأبنتهم في ليلة دخلتها. إضافة لأمور أخرى جانبية، قد تمارس من حقوق، وشكوى ووو.....الخ.

وأهم ما في الأمر؛ فحص غشاء بكارة العروسة بوجود العروس- لبيان حقيقة الأمر قبل أن تستفحل الأمور ونزيد العقدة

تعقيدا.
طلبت من العروس أن يحضر إلى غرفتي لأوضح له بالصور أنواع أغشية البكارة-- أولا: ليفهم بأن الأغشية منوعة، ومختلفة في الشكل، وهي تختلف من فتاة لأخرى. ثانيا: ليهدئ من انفعالاته واضطراباته التي أرهقت الجميع، ليشكك بظنه وبالخطأ الفادح الذي وقع فيه.
جلس أمامي صاغرا أشبه بالمجنون، مذهولا غير مصدق لما تسمع أذنيه وما ترى عينيه المحمرتين. أهجس به على وشك أن يفقد توازنه، كأنّه قد صعق بما عرف، حينها أدرك حجم الكارثة التي افتعلها. زم على شفتيه بـ قَضِمَة الندم وهو ينز خجلا أمامي، أغتسل وجهه بسيل العرق، صار يرجو الله أن تكون النتائج عكس ظنه، تغير طبعه سريعا، باتت عقارب الشك تلسع مشاعره، التمس جهله، بحيث تحول من أسد مفترس لقطة أليفة.
أضحى يطأطأ رأسه خجلا من نظرات العيون المبحلقة في شخصه. أنكسر سريعا أمام الهيئة العاملة في المستوصف. أحس بهشاشة مخزونه الثقافي، لم يعد يسعفه في حرجة... لبسه ثوب الارتباك، بدأت الحيرة تعصف بمشاعره غير مدرك لما آلت أليه فعلته.
ماذا لو لم يكن على صواب؟ كيف سيعالج أمر الفضيحة التي تخطت حدود الألفة؟
أسئلة دارت في رأسه، الهبت زغب مشاعره، تهجس به كالسمكة المزهرة، لا يروقه مقعدا يجلس عليه، ولا جدارا يستند عليه. صار يمج دخان سيجارته كمدمن، ينفث زفير دخانها في الهواء كمكينة الحرث. شحوب طافح على وجهه النحيف، فيما تقمصت شفته السفلى رجفة لا إرادية.
كان يرتدي بدلة سوداء وهي بدلة الزفاف، بطوله الفارع

وشعره المجعد بان أشبه بعمود نور مطفية أنواره.

طلبت منه أن يرافقني إلى عروسته، التي كنتُ قد أجريت لها فحص سريع أولي وتيقنت من نوع غشاء بكارتها المطاطي، قبل أن تصل الشرطة. ذلك الأجراء ساعدني على أن ألف حبل العقدة على عنقه وأطرافه، وأفرغ محتويات ظنه السيئة في كأسه.

لابد من معرفة الحقيقة، لابد أن يتأكد من عفة عروسه بنفسه، تلك التي كال لها الاتهام الباطل، لينال جزائه. أنها لحظة اختبار حقيقي بالنسبة له.

دخل لساحة المعركة وهو يرتجف من رأسه لأخمص قدميه، تزعزعت الثقة بنفسه بعد أن شاهدة الاختلافات الواضحة في أشكال المهبل، وحين تيقن بأم عينيه؛ بأن غشاء بكارتها من النوع المطاط وقع مغشيا على قدميها، صار يبكي ويولول كالحريم، أضحى يعتذر منها بشتى الطرق، طالبا الصفح بتوسل ذليل قل نظيره...

صار يقبل قدميها.. يقبل رأسها.. يتأسف.. يتأفف.... لكن هيهات من إصلاح الجرة بعد كسرها، المشكلة تجاوزت حدود الاعتذار، لابد من أطراف خارجية تُشرعْ وسطا مقبولا لتضييق حدود الخلاف، وساطة يكون لها دور القيادة والتوجيه وإصلاح ذات البين، هذا إذا رست الأمور على ما يرام دون أن تتطور لنزاعات عشائرية بين العائلتين.

حيث شرف البنت يمتد أطرافه بعيدا ليشمل العائلة الكبيرة والعشيرة، المسألة لا تحل بالاعتذار، المسالة بحاجة لخبراء في هذا الميدان، وبحاجة لوجهاء العائلتين.

كانت العروسة بحاجة لعناية نفسية وجسدية مركزة مدة أسبوع إلى أسبوعين على أقل تقدير. وهي بحاجة لأبن بطوطة لينتشلها من العبث النفسي الذي أجتاح كيانها، ليعبر بها إلى

شاطئ الاستقرار والأمان.
حتما ستلازمها كآبة ما زمنا حتى تهدأ أعصابها، قبل أن يسعف ذاتها صلحٌ أعرج..... لا بد أن يتصفوا أصحاب الحلول الناجعة بالحياد، بالحكمة والموعظة، لتجنب العصبية.
لابد من وساطة تجمع طرفي القضية على طاولة واحدة قبل أن تتفاقم الأمور وتتحول لعداء فاصل يجر العائلتين لعواقب وخيمة، وذلك قبل أن تغوص القضية في المحاكم بحثا عن الحقوق الشرعية. هذا؛ إذا ابعدنا احتمال التصادم المباشر بين العائلتين.
العقدة في المسألة بأن موقف المرأة ضعيف أمام المجتمع حتى لو كانت على حق، لذا تقبل بالتنازلات كي لا تلام وتستقر.

الصدمة

قطع شوطا طويلا من مضمار حياته ولم يتمكن من إلانة الظرف لصالحه، لم يتمكن من ادراك هدفه، أن يفك طلسم العقدة التي أَبرمتْ حول حلمه وعكرتْ مزاج كأسه مع أبنة عمه، على الرغم من أنه أقرب من حبل الوريد إليها نسبا.

تعقدت أموره دون أن يجد حلولا وسطية تعينه على ذاته المنهكة، فالنوافذ التي كان يتأمل أن ينفذ منها قبس سعادته؛ أسدل الستار عليها، جعلته يعيش في دوامة مفرغة، صمت مجحف أطبق على فكره وظنه، بعد أن وجد ذاته تخسر كل شيء في محفل الحياة.

إصراره على امتلاك أبنة عمه كان موازيا لعناد وكراهية أبنة عمه له، تلك التي اتصفت بالحدة والصرامة، تزامنا مع إرهاصات شوقه لها!

اصرارها على العند والرفض القاطع له؛ كان مقابل تزمته على امتلاكها كزوجة وكحق شرعي حسب الأعراف القبلية التي لازال البعض متمسكا بها - بنت العم لأبن العم- حاول مرارا على مدى فترة الشباب أن يلين طرف عودها الصلب دون جدوى، أوصدت بوجهه جميع الأبواب بوجهه. لم يتمكن من ادراك غايته أمام جبروت سدها العالي! فهي لا تقل عنه شأنا، شخصيتها القوية أجبرته على تأملها واحترامها وانتظارها وتحمل مرارة الصبر..

إلى جانب شخصيتها الفذة تمتلك فتنة شرسة لا يمكنه التخلي

عنهـا، ذلـك مـا دفعـه إلـى التمسـك بهـا تمسـك الأعمـى بعصـاه، جعلتـه يقتنـع بـأن الحيـاة دون **فتنـة** لا طعـم لهـا، هجـس بهـا مِقْـوَد العجلة التي بها يدير شؤون رحلة حياته الطويلة.

كـان ينظـر إليهـا نظـرة الجـواهري لمكنوناتـه، يعـدها تحفـة لا يمكـن التفـريط بهـا، مهمـا قسـت عليـه الظـروف وانعكسـت عليـه نتـائج تزمتها.

بالمقابـل هـيَّ لـم تسـتطع أن تثنيـه عـن عزمـه وإصـراره علـى تحـديها، كـل محاولاتهـا التـي بـادرت إليهـا بـاءت بالفشـل. لـم تجـد فسـحة حقيقيـة لمشـوار حياتهـا خـلال عقـدين متتـاليين مـن الـزمن، كانـت أشـبه بصـرة محكومـة عليهـا بالنسـيان، أقفـل علـى حظهـا وتأملاتها بالعند.

وعلـى الـرغم مـن هـاجس الخـوف الـذي سـطا عليـه بعـد أن تخطـى مرحلـة الشـباب؛ إلا أنـه لـم ينحـرف عـن خـط إصـراره قيـد شـعرة؛ بقـيَّ جالسـا علـى رأس الطريـق، يمنـع كـل مـن يبغـي التواصـل معهـا، منتظـرا رجائهـا الـذي صـار يتلاشـى لونـه فـي الأفق.

كـان عـوده يافعـا، أخضـرا، طريـا، لا يتجـاوز عمـره 27 عامـا حين تقدم لهـا. هـا قـد ذبلـت وأصـفرت جلُّ أوراقـه بعـد 20 سـنة مـن العنـاد والاصـرار، أنكسـر ظلـه، يـبس عـوده؛ ومـع ذلـك بقـيَّ متمسكا بكفـاف أبنـة عمـه **فتنـه**. حـارب كـل مـن سـعى التقـرب مـن حـدودها، حـرق كـل فكـرة اسـتفحلت باسـمها، حتـى ولـو كانـت سـرا في نجوى من يبتغيها.

عنادهـا زاده إصـرارا وعجرفـة علـى التمسـك بهـا، حـارب كـل مـن غُـرَّ بهـا، أو فكـر فـي خلوتـه بحسـنها، أو سـاقته رغبتـه المجنونـة إلـى محـراب قلبهـا—مـع الأيـام كبـرت العقـدة، عـرف بهـا القاصـي والـداني؛ حتـى التفـت خيـوط العقـدة علـى سـاقيه ويديـه قبـل أن تلتف على ساقي ويدي **فتنه**.

فيما أبنة العم التي تأملت غيره من الشباب؛ بقيت تتأمل انحراف مؤشر الحظ عن خط إصراره الثابت بتحديها عبر مراحل الزمن المتعاقبة، خلال تلك الفترة كانت تخطط عكس تخطيطه، ركبت مركب العند، أبحرت إلى حيث العمق، حاولت الارتباط بغيره دون أن تفلح، لم تتوقع بأن يكون للزمن سطوة يظلل قرارها، لم تتوقع بأن النار التي أضرمتها بيديها، ستحرق جمار عمرها.. مع مرور السنين باتت تشعر بوخز العنوسة يترك أوشم غل على ثنايا الوجه والجسد؛ حتى سُرق العمر من الوجه فتنته.

تلك الإبر باتت ترسم ملامح السنين المرة على ملامح الوجه، أنها آفة العنوسة التي ثبت جذورها في الفكر قبل أن تظهر آثارها على لوح الجسد، تكورت كأوهان على جدران القلب والجفن والشفة أشبه بوهن العنكبوت، هجست به من خلال ترهل عضلات الساقين واليدين، من هالة السواد المحيطة بالعينين. تلك الآفة أضحت لها لمعة في عيون الناس، هذا الإحساس الفطري صار ينخر جبل الصبر والفكر كنخر العث لجذع الشجر. افتقدت زينة الألق، تبددت تلك الأحلام، تجردت من سمة الحبور والفرح.

***

ما أن هجست بـ كش ثوب الفتنة؛ حتى بردت جمرة العند، تلك التي كويت بها قبل أن تكوي بها أبن عمها. ذبلت نضارة الجسد وصبنت ذوائب الفودين، شف جدول الشباب، خفَّ بريق النهدين.. أحست بانكسار في قامتها، وبهوت بنورها. ملت من الجلوس تحت مظلة الانتظار، هجست بخشونة مسطبتها، تلك التي أرهقت مقعدها قبل أن يرهقها العمر ويكسر عود القها. لم تعد تجيد المناورة، ولا المقاومة، أمام تآكل جدران أنوثتها.

تيقنتْ أخيرا بأنه لا حل لديها سوى القبل بأبن عمها، لم تجد من يرمي حجره في مستنقع ذلك الصمت، ليحرك ذوائب أمواج القلب بعيدا عن أبن عمها، ذلك الذي وقف حائلا بوجه كل من تسوقه ظنونه نحو النيل من فتنتها.

لذا قررت أن تجرد ذاتها من عجرفة المناورة، تعلمت الدرس واتصفت بالعقلانية، بعد أن صقلت بالتجربة المرة.. غدت جمرة عنادها رمادا في مهب الريح، هجست ذاتها في خريف العمر، لم تعد تحتمل سقم الزمن؛ لذا تحولت من نمرة شرسة لقطة أليفة.

إذا لابد من حل لهذه المعضلة التي تعفنت بفعل الزمن، قبل أن تفلت عجلة الزمن من قبضة يديها، أصبحت فقيرة لا تملك من الوقت ما يسعفها على مواصلة عنادها. أدركت بأنها قد وصلت نهاية المطاف، ولن تحل العقدة إلا بتنازل أحد الطرفين عن سلطان عرشه، كما تيقنت بأنَّ أبن عمها أضحى كمسمار صدئ في موضعه، لا يمكن قلعه..

تلك الحالة؛ أوصلتها إلى مرحلة استنزاف! إذا يجب كسر قيد العند لتعيش كإنسانة كباقي البشر. تجاوزت مرحلة الألق، فقدت نغمة السلطنة، باتت تزحف خلف قريناتها بعد أن كانت في مقدمتهم، وقبل أن تتجاوز الخط العنوسة الفاصل بين الحياة والموت بالنسبة للمرأة؛ قررت أن تعيد النظر بقرارها.

الأمومة هي الشهادة العليا التي تحلم بها كل امرأة، لذا يجب أن يحصل تغيير في نمط الروتين الجاري، نحت لإصلاح ما خربه الزمن، صارت تطرق حلولا وسطية لإنهاء الأزمة التي تعفنت في الظلمة، بدت تبحث عن بصيص ضوء في عتمة دربها.

من تحليل شخصية أبن عمها، ادركت بأنه لن يتخلى عن موقفه بعد أن صدأ عمره. لقد ضحى ببذرة شبابه، فما بقي من

العمر لن يزيد عن ما مضى، لذا تجده لا يملك حق التنازل أبدا، مسألة العند أصبحت قوائم شخصيته، جزء من عهدته، فالقضية أصبحت بالنسبة له مسألة كرامة.

تلك الأسباب جعلته أسافين العند تثبت في خاصرة الزمن، لابد أن تتحرك بذاتها لكسر ذلك الجمود القائم، خاصة أنها افتقدت رونق الحسن وعصا الأنوثة، افتقدت كل ما يتمناه المرء في المرأة. إذا يجب أن يحصل تغيير في ميزان القوى، ويجب أن تستسلم له بذاتها.

لذا أنصب فكرها على تسليم تفاحة أنوثتها لسيف ذكوريته، عسى أن تجني ثمرة أحلامها بعد أن تجاوزت السابعة والثلاثين من العمر...

***

وعلى غير العادة؛ فاجأته بالموافقة على الزواج منه.. قرارها كان أشبه بقنبلة موقوتة فجرتها بين أحضانه، لم تترك له فرصة التهيؤ والاستعداد، الغبطة فضحت أساريره المختبئة وأن كانت قد جاءت متأخرة، المفاجأة أعادت له حيويته، لم يصدق أن يلتمس باكورة صبره بعد ذلك العناء الذي أرهقه.

وأخيرا صار الحلم قاب قوسين أو ادنى، تلك العقدة التي قوضت صبره ونخرت لبيب عمره، تفتت بفعل الزمن. أصبح لنضوج الفكرة أصداء في النفس، لابد من قطاف ثمار الفرص. لابد من أن يملأ سلاله بعناقيد الكروم.

جرد نفسه من أي اهتمام إلا من تهيئة بهرجة عرسه، يجب أن يكون في مقام يليق بصاحبة المقام، ليتجنب انتقاد العقارب والأقارب. يجب عليه أن لا يبطئ ولا يبخس في إرضاء حبيبته، لا شيء ذا قيمة يفوق قيمتها، هي الهرم الذي كان ينظر لها، التجربة المريرة عرفته بقيمة ثمنها الباهض.

أسرع بخطوات مراحل الزفاف، لقد تمسك بالعروة الوثقى،

أشرقت شمس الحلم من جديد، أصبح للغد جدارية في واقع ظنه.. لذا أوقد شموع ليلته المرجوة بكل ما لها من سحر وبهاء، أنها ليلة الهناء، تلك التي جاهد من أجل إبرام صفقتها طوال السنين العجاف.

ها هي ليلة الزفاف قد حلت ضيفة على ضوء القمر، فازدادت بهرجة ولمعان وبهجة، ترطبت بندى الصمت المطبق، سادها هدوء نثري غطى على متاعب العمر، كرنفال شمل المعارف والجيرة والأقارب.

فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وعلى قدر زمن الانتظار المر كانت قد حلت الصدمة الثانية، تلك التي عصفت بجدار الصمت في ليلة دخلته، تلك التي لم يكن يتوقع دوشتها وصفيرها تطرش أذنيه.....

ففي ليلة دخلته التي كان ينتظرها، انطفأت شمعة ذكوريته تماما أمام تفاحة أنوثتها، لم تتوهج شمعة رجولته قط... حينها إنهار مغشياً على وجه، الزمن سلب منه البهجة والشباب. حاول جاهدا تخطي قنطرته الأخيرة دون جدوى، دون أن تتحرك ذبابة الروح في القضيب.

كسرت هيبته أمام صرح أنوثتها، لم يستطع إرضائها وإرضاء ذاته، عطفت على حاله، حاولت أعانته واستدراج الأمر باستثارته، شدته إلى صدرها مرارا دون أن يستعيد نبض فكره..

تفصد جبينه بالعرق، أحس بطوفان الهم يجرفه، إنها النهاية، أنهار كجبل الثلج، صك فاهه، فلم ينبس بشفة.

تاه في قفار الزمن، كأنَّ الزمن عاقبه على جريرة فعلته، حين فرض عليها ثوب العزوبية، ثأر منه بذات القسوة، حيث صفة الأنانية التي لديه، غلبت صفة الإيثار، فانعكست آثار قسوته على حياته بالسلب.

بعد أن تجرد من كل شيء، بعد أن قتل ذاته ومن أحب؛ تخلى عن حلمه إلى الأبد.

لا تكن كالسيف على من تحب – الزمن كفيل بكسر السيف
الشمس إن اختفت لا لن تغب – ما من مجانة تزجل الصيف

الرحلة المؤجلة

لـم يكـن تَجَمُعنـا فـي محـل سـكنانا إلا صـدفة ولـدتها الغربـة اللعينـة، تلـك التـي لا يشـعر بمـرارة صـبرها إلا مـن تجـرع مـرارة الهجر، بحثا عن صيغة حياة مقنعة في مغارب الارض.
هـذه الغربـة التـي منحتنـا صـداقة مـا مـن خيارهـا بـدٌ، صـنعت لنـا أقـدارا مـن نكـد الـدنيا، أقـدارا ارتـديناها كيفمـا نشـاء، عشـنا خلالهـا صـداقة آنيـة، مرحليـة، غيـر مقنعـةٍ، تربعـت علـى أكتـافِ الظـرفِ، أتحفت طابعها في عناصر الحياة..
كنـا ثلاثـة مدرسـين جمعتنـا الصـدفة لـنقطن منعـزلين فـي مبنـى ملحـق بمبنـى جديـد تـابع ملكيتـه لأحـد أشـياخ اليمن. المبنـى يقـع فـي حي الحصبة من مدينة صنعاء عاصمة اليمن.
المبنـى عبـارة عـن دولـج مكـون مـن ثـلاث غـرف صـغيرة مصـفوفة أفقيـا، يـربط بينهـا ممـر ضـيق بعـرض متـرين، ينتهـي بسـلم يـؤدي إلـى فنـار الأرض. هـذه الغـرف المعزولـة تكـاد تكـون أشـبه بسـرداب، فهـي مدفونـة فـي الأرض بحـدود ارتفـاع الشبابيك.
قطنـا فيهـا نحـن الثلاثـة (أنـا ومعتـز وإيـاد) لقربهـا عـن مدارسـنا، ولموقعهـا المميـز بعيـدا عـن صـخب وضوضـاء المدينـة، إضـافة للاسـتقلالية التامـة التـي تتصـف بهـا، فيهـا حمامـات ومطـبخ مشـترك تقـع فـي نهايـة الممـر مـن جهـة اليمـين. كمـا كـان لحداثـة البنـاء دافـع آخـر عجـل مـن سـعينا لاسـتئجاره، كـون المبنـى غيـر مسكون قبل أن نسكن فيه..
يتصـف إيـاد؛ بقصـر قامتـه وسـمنه المفـرط ولباقـة لسـانه، حيـث

البلادة والثرثرة التي يتصف بها تميزه عن سائر البشر؛ يذكرني بفرط عجائز النساء وهن يثرثرن بلفيف من القصص لكثر ما يحفظ من أحداث سمعها عن جلسات المقاهي. يكاد يكون تفكيره محصور في بطنه أكثر من هموم الدنيا، بحيث أنه يلهم كل ما يصادفه في طريقه أشبه بالجراد الزاحف على الحقل. ممتلئ البدن، ذات بشرة بيضاء، حَسِنْ الملامح، كرشه يتقدم على صدره، فيما أسته كـ أست فلاحات نساء أفريقيا بأردافه المتورمة. تهجس به يحدل في مشييه، يدخل أنفه في كل معمعة نقاش تصادفه، يدعي المفهومية على رغم من محدودية معلوماته المستسقاة من جلسات والمقاهي والنوادي الليلية التي يرتادها.
أحيانا تشعر بنوعية احاديثه كأنها صور مقتطفة من بانوراما الكذب، كذب مصفط، أو من أساطير الخيال، كما أنه يتصف بصفة المرح والطرافة. تكاد تكون الصفة الإيجابية الوحيدة المقبولة فيه، دائما ما تجده يغوص في قهقهة شديدة؛ حتى يخق صوته الأجش في أعماق صدره. ما أن يضحك؛ حتى يبدأ جسده بالاهتزاز كالنابض، تصاحب ضحكته كركرة تشبه كركرة الطفل.

أما معتز فأني على معرفة مسبقة به، لكني لم أكن محتك به احتكاك مباشر، نظرا لصفة الحسد المأخوذة عنه، والملتصقة به التصاق الشعرة بالجسد. أحيانا تجده يحسد نفسه أن لم يجد من يحسده، أنه الهوس الذي يطغي على تصرفاته. تهجس به يحمل ضغينة في داخله لجميع البشر، لكثرة انتقاداته وتعليقاته التي لا تنتهي.
كأنَّ لشرارة الحسد المتقدة في عينيه، والجمود الطاغي على ملامح وجهه، والساري بلون الصفرة في دمه، حاجزا يمنعني

من الاحتكاك به، يمنع إضفاء صفة التكافؤ والاندماج بينه وبين أقرانه.

على أية حال أنا الوحيد الذي كنت أمتلك أثاث مطبخ شبه كاملة بين المجموعة بعد عودة زوجتي للوطن بسبب حرب الشمال والجنوب.. أنا الوحيد الذي كنت أمسك بعصا الأمور من منتصفها، أكاد أكون عادلا ومتوازنا في كل الأمور، المادية والاجتماعية والعاطفية والنفسية.. الخ.
عادلا في تصرفاتي وسلوكي وعلاقاتي مع الآخرين. لا أحب النفاق والكذب والثرثرة-- لا أعرف البغض والغيض والحسد، تكاد تكون النية الصادقة والبراءة والصدق والبساطة سمات تتحكم بتصرفاتي، بل أنها الثوب من الألق تعكس شخصيتي في جميع المحافل.
لا مال يغرني ولا جاه يسعدني، كريم نفس، لا أسلك دروب العقد، لا أجامل على حساب الحق، أحترم ذاتي وأراعي الآخرين - لذا تجدني أشبه بالرأس الجامع بين الأقطاب المتنافرة في دائرة الوحدة التي تجمعنا.
***
كانت الأيام تمضي بنا بسلاسة طبيعية، بروتين دون تغيير في النمط العلاقة، خاصة خلال الفترة الأولى من السنة الدراسية، هكذا مرت بنا الايام تأكل بعضها إلى أن دارت الدفة عن أصل اتجاهها؛ حين شرفنا بالسكن الأستاذ فالح، ذلك الشاب بعمره الثلاثين، والذي أكرمه الشيخ ليحل ضيفا علينا دون أذن منا، ودون سابق معرفة، كان قد فرض على تجمعنا من قبل مالك البناء، حيث فوجئنا به في أحدى الصباحات نائما في الممر الضيق تحت درجات السُلّم، وذلك قبل انتهاء العام الدراسي بشهر واحد...

عَرّفَنَا بنفسه أنه الأستاذ فالح مدرس مادة العلوم في أحدى قرى محافظة مأرب، وبالذات كان يُعطي دروسا خصوصية بلا مقابل مادي لأولاد وأحفاد الشيخ صاحب البناية التي نسكن بها. في المقابل كان الشيخ يغدق عليه بكرمه، بمأكله وسكنه، يدرجها ضمن التعويض والمساعدة الآنية له.

الاستاذ فالح كان هادئا، انطوائيا، لم يحاول الدخول بين صفوفنا، لم يحاول التعرف علينا والاندماج بتجمعنا، حتى أنه لم يحاول مجاملتنا. من خلال الملاحظة اكتشفنا فيه صفة البخل والقتر المبالغ به، والذي يبدو قد أكل من صحته وعافيته الشيء الكثير، وكأنه محنط بالهم والغم ومرار الزمن لملامح البؤس المتجهمة على وجهه، فيبان كغصن أجرد فاقدا للجاذبية.

لقد تحمل مشقة الجوع والذل في مقابل توفير بعض الريالات التي لا تسمن ولا تغني إطلاقا، فعلى سبيل المثال لم أشاهده يتبضع حاجات للأهل قبل سفره، لم يدخل مطعما تغييرا لنمط حياته، لم أشاهده على مدى شهر من مكوثه معنا يأكل أكلا صحيا بتاتا، كان يعتمد في ظرف معيشته على عطف الشيخ اليمني الذي يغنيه بفتائت طبخه، أو على سلطة الطماطم والبصل مع قرص خبز يملأ بها بطنه.

ذلك هو المنهج الذي تمسك به وسار عليه خلال فترة مكوثه معنا، إلا ما ندر؛ حتى حان موعد سفره.

تهجس به بطوله الفارع، ونحول جسده وسمرة بشرته، أشبه بعمود النور أطفأت أنواره، تشع منه رائحة عراق نتنة لقلة استحمامه واهتمامه بنفسه؛ لذا لم نلح عليه إلحاحا مجزيا ليندمج ضمن صفوفنا. لم نحاول مجاملته لانطوائه على ذاته وكتومه وصمته. كان قد ترك صندوقه الأسود مغلقا دون أن يحاول مشاركتنا والاندماج بنا، ودون أن نبادر من طرفنا بإشراكه في ألفتنا.

لوضعه التعيس؛ رأفت به وعرضت عليه أن كانت له حاجة يبتغيها فلا يتوان في طلبها. فعلا طلب مني أن أضع حقيبته الكبيرة المدججة بأسراره، والمعدة للسفر في غرفتي، فرحبت بذلك.

***

مرت الأيام مسرعة، كنا في منتصف شهر حزيران من عام 1997، ننتظر ساعة السفر والعودة لديارنا، بعد أن لدغتنا سنين القدر بغربة سلبت منا نضارتنا وأتحفت في وجوهنا صفرة المتاعب والتوحد لطول النوى، منتظرين العودة للوطن على أحر من الجمر، وذلك حسب جدول وضعته مديرية تربية صنعاء وحسب الأولوية، التي فاضلت به بين مدرسي المناطق النائية ومدرسي العاصمة صنعاء.
قبل سفرنا كنت قد أعددت سمكة كبيرة من نوع الهامور بحجم أربعة كيلوغرامات تقريبا كمأدبة عشاء ووليمة وداع فيما بيننا، لتغيير نمط الروتين الذي نعيشه من جهة، ولتبجيل تلك الألفة بذاكرة طيبة من جهة أخرى..
قصدت بها ترك ذكرى طيبة تعلق في نفوس الزملاء، فالذكريات أشبه بفصول السنة تجدد في الذات الحيوية والنشاط، في الوقت الذي به تدهن نفوس أصحابها بالمرحمة.
كنت قد شويت سمكة الهامور بأحد أفران مخابز الصمون (الروتي) برفقة معتز، وكنا قد تجمعنا حول صينية المأدبة في مساء السبت الثاني من شهر حزيران، السمكة تفترش مساحة صينية معدنية بقطر 50 سم. أحطنا الصينية من الجهات الأربعة، كنت قد جلستُ بمواجهة باب الغرفة، يجاورني على اليسار معتز وعلى جهة اليمين ضيف إياد، فيما جلس إياد بالجهة المقابلة لي. غرفة متواضعة عبارة عن 3×4 م، مجهزة

بسرير وطنفسة خضراء من النايلون تفرش الأرض، وخزانة ملابس صينية الصنع من لدائن النايلون المشمع.
كانت الساعة تشير إلى حدود الثامنة مساءً.
جلسنا حول المائدة كوحوش الغابة، نود افتراس السمكة بشيء من الهمجية، للجوع يحاصرنا من جهة ونضوج الشواء يغرينا من جهة أخرى. السمكة تجذب الأنظار، يطغي عليها لون الشفق المشظى بحمرة النضوج، والمنغمسة أطرافها ووسطها بشيء من الدكنة المخالطة لبياض اللحم المقدد، والملسوعة حوافها وذوائبها وعمودها الفقري بسواد النار، باتت تغري النظر، وتعصف بالمعدة، كأنها بطراوتها ودسامتها تشكل لوحة سريالية مغنجة بالشوق والوله. كانت استثنائية، وبالذات مع تناثر قطع الطماطم والبصل والفلفل الأخضر عليها ومن حولها..
تهيجت أنفاسنا، غدت تتأوه في ظل سحر ذلك الشفق الجذاب، لحظة تحكي قصة عشق أزلية بين نواجذ الفم ولدانة اللحم المقدد، في ظل رائحة زكية تزكم الخياشيم وجوع هميم ألم بالنفس، ولذة مدفونة في جوف السمكة.
ذلك العشق أثار زغب المشاعر، أنبثق من لهفة الاشتهاء والجوع، ماج في حدق العيون المبحلقة بنفس دنيئة لطلاء السمكة، غدى كلحنٍ بين النفس والعين، يعزف دندنة الشغف على وتر الاحساس، بحيث كل منا صار يمسح روال فمه بيديه قبل أن نطلق عِنان نسفها، قبل جسها وعفسها وتجريدها من سحرها، قبل بدأ سباق النزال، وذلك لشهقة اللذة الخلجة في النفوس الجائعة.
السمكة بـ بهائها جعلت للجوع دلائل وأذرع في النفس الدنيئة للبت بنسفها، امتدت من أعماق خواطرنا لرغاء تلك اللذة الرائبة في اللحم المقدد، صار الرجاء يزحف خلف الطيب على

خاصرة العناء الذي أرهقنا، كل منا ضارع بفكره يترقب إشارة بدء النزال لفضاء الشهوة.

السمكة رائجة بألوان الشواء، تَأْز من لسعة الحرارة المدفونة بها، يفوح منها عبق اللذة والاشتهاء. ما أن أطلقتُ إشارة البدء؛ ابتداء العزف يطرب على أوتار النهم، هجمت الأنفس كالوحوش على السمكة، مضت تملئ جرادل الجوع باللحم المقدد. الكل مبتهج بحسن المنظر ولين الألفة، رائحة الفلفل الأخضر والطماطم والبصل المشوي موزعة بتناسق على سطح السمكة في منظر بهيج، امتزجت مع رائحة الشواء، مخرت الأنوف مع شف شرائح الليمون والشطة الحارة التي أسقمت الشهوة خمرا، جعلت العيون تذرف دموعا والأنوف تخر من لسعة الاشتهاء. ابتدأت مكينة المعدة تطحن الجوع بلحم السمك، صارت الهواجس تندمج بأزيز اللحم المشوي وهي تزق بالأنفس لساحة الميدان، كان الطيب فيها ارتقى حدود خواطرنا كدخان اللذة التي مخرت خياشيمنا.
مع ابتداء عزفنا؛ ساد هدوء في الأجواء، سكون عام عم جو الغرفة، بعد أن كنا قبل ذلك نتداول أحاديث جانبية خصت بقائمة السفر المعلنة وتأخير بعض الوجبات لأجل قادم، البعض منا كان قد سافر وهناك قوائم لاتزال تنتظر دورها.. إلى ذلك من شجون الحديث.
ففي الوقت الذي به انهمكنا باستلال الطعم، والاستمتاع بالطيب واللذة المفرطة، التي بها صار أحدنا لا يهتم لرفيقه وصاحبه؛ في الوقت الذي غدت به السمكة تذوب في أشداقنا، وتعزف قروؤنا سمفونية أحاسيسنا باللذة والطيب. طرق سماعنا ربت خفيف على الباب الذي كان مفلجا بزاوية 30 درجة. كانت لازالت السفرة في أوج ربوعها، لم تمر سوى بضع ثوان فقط

علـى بـدأ النـزال. حينهـا توجسـت النفـوس، توقفـت الأيـدي عـن الأداء، الكل ود معرفة هوية الطارق...
مثلمـا اسـلفت، كنـت جالسـا فـي الجهـة المقابلـة لبـاب الغرفـة، والمفلـج بمقـدار شـبر تقريبـا. الكـل التفـت لجهـة البـاب، وكـأنَّ الطـارق بربتـه قـد قطـع حبـل الوصـل بـين الـنفس والسـمكة، الكـل ترقب الخبر الآتي..
أقـول فـي ذاك الوقـت بالضـبط بعـد أن تراخـت أعصـابنا، وصـرنا نسـابق بعضـنا الـبعض خلـف رائحـة الشـواء التـي أزكمـت الأنـوف، وبعـد أن انغمسـت أعيننـا بلبيـب سـحر السـمكة، وبعـد أن ترطبـت شـفاهنا بغمـرة الطيـب واللـذة، بعـد أن تجاوزنـا وجـس الجـوع وصـرنا نسـتلهم اللحظـة باللحظـة دون أن نفـرط فـي الـزمن، متعقبـين ظـلال الجـوع الـذي بـات يـنكمش ويهـرب مـن أمامنـا.... فـي تلـك اللحظـة طُـرِقَ الأسـتاذ فـالح بـاب الغرفـة طَرقـا خفيفـا، وكأنـه باغـت الصـمت بدقـة ربتـه للبـاب؛ حينهـا شـدَّ انتباهنـا، وجفـت عيوننـا، تطـايرت الهـواجس وهـي تصـغي لحـديث الطارق - وهو يسرق منا أجواء المتعة.
قلت له حينها:.....
- تفضـل يـا أسـتاذ فـالح، يـا هـلا بـك، زارتنـا البركـة، هيـا تفضل شاركنا العشاء، لا زلنا في البداية المشوار.
قال بأدب وهو يرجوا أخذ حقيبته:....
- شـكرا لـك أسـتاذ، دام فضـلك، أنـي فـي عجلـة مـن أمـري، استأذنك بأخذ حقيبتي أذا سمحت.
- خيرا يا أستاذا فالح، لِمَ تأخذها؟
- أتمنـى لكـم إقامـة موفقـة وسـفر ميمـون، بـإذن الله هـذه الليلـة وفـي تمـام العاشـرة والنصـف سـتقلع طـائرتي، أود أن أصل إلى المطار بالوقت المناسب.
- علـى الخيـر والبركـة، أنشـاء الله تصـل بالسـلامة.... لكـن

يجب أن تشاركنا عشاءنا ولو بلقمة واحدة لتتذكرنا..
كنت قد الححت عليه دون جدوى، كان يعتذر بأدب لضيق الوقت قائلا:.....

- أعتذر منك أستاذي الفاضل، سامحني، ليس عندي وقت إضافي يسمح بذلك، يجب أن أكون متواجدا في المطار قبل الإقلاع بساعتين.

إذا جاء يستأذنني بأخذ حقيبته، ليعد نفسه للسفر-- كانت الحقيبة موضوعة بجانب الباب، مد يده بهدوء وسلاسة كما يفعل اللص، قبض على مقبضها، ثم سحبها وفل بذات الهدوء، أنسلت دون ضوضاء، دون أن يدخل في الغرفة بكامل جسده، تكلل بحركة ماهرة كلص مدرب. فقلت له مودعا:-..

- الله معاك، تصل بالسلامة، بلغ الأهل السلام.
- شكرا لك يا طيب.

سحب نفسه ثم أنزوى خلف الباب.
ما أنْ سحب الحقيبة؛ حتى ضرب معز راحة يده بقوة على فخذ رجله قائلا بصوت عال، مرتفع:....

- آخ.. هذا يسافر وأنا أبقى !!!!!!!!.

قالها بحسرة شديدة، ملئها ألمْ وحسرة، نبعت من أعماقه، بحيث الكلام خرج من جوف كسهم قاتل بوجه فالح، وكأنَّ الصوت لم ينطق به لسانه، أنما كائن آخر يسكن جوفه.. عصارة السم قطرت أحاسيسه ومشاعره في كأس الاستاذ فالح الذي كان قد سمع تأفف معتز تماما دون أن يرد عليه، لأدبه.
لقد قدحت عينيه بشرارة الغيرة ونار الحسد دون لباقة ولياقة، أحرق أوراق المسكين قبل أن ينطلق، كان قد غال كثيرا في سلوكه المشين، تجاوز قواعد التعامل بين الزملاء.
من المعلوم أن الحسد يولد البغضاء، بحيث كلنا لمناه على فعلته القبيحة، "قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، .....، وَمِنْ

شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ" صدق الله العظيم.
فقلت له:...

- ما بك يا أخي؟ دعه يمضي، ثم أنك إن تأخرت يوما أو يومين فالأمر سيان، كلنا سنرحل، لم العجلة؟ أنت رجل أعزب لا ينتظرك أحد في الوطن.

حينها قال معز وهو يضحك بفطر وسذاجة، غير مبال لما حصل، هههههههههه..... قال:....

- ألا ترى القذارة التي يحملها!! ألا ترى أساه وجهامة شكله؟ أيسافر مثل هذا ونحن ننتظر؟ هههههههههه. !!.

انفجرنا ضحكا مع ضحكته، هههه، حتى أدركت ضحكاتنا أذني فالح. صار يضحك ويكركر، كأنه لم يفعل شيئا مخلا، أضحكنا معه.

هههههههههه.فقلت له مازحا:...

- والله يا معتز؛ على حسدك هذا لا أظنه سيسافر الليلة!! هههههه.

قال إياد مستهزئا:...

- وعند دبش الخبر اليقين. مؤشرا بأصبعه على معتز. هههههههه.
- أظنه فاجأه بضربة مُعتزية قاضية. هههههه. قال ذلك الضيف

قال متعز:...

- م---ا---ع ماع هههههههههههه.

قال إياد:...

- دعنا نعود إلى السمكة، أمامنا جولة طويلة، لقد جاء بغير وقته، ستتفجر بطوننا. هههه.
- هههههههه.

تحول الحديث إلى هزار، أغضنا به معز، أحمر وجهه خجلا، لكنه لم يزعل، وكأن الأمر سيان قد تعود عليه.
بعدها صرنا نتجاذب أطراف الحديث عن شتى المواضيع، عن فالح، والسفر، والسمكة التي لم يبقى منها سوى العظام تشهد على لذتها، وعلى المجاعة التي عبر عليها هؤلاء الشرذمة.
وبين الجد والضحك والهزل، صرنا نقصف أسلوب وسلوك معتز، بحيث لم يترك لنا فرصة توديع فالح بشكل لائق. فقلت مازحا:...

- لا أظنه سيصل سالما لأهله..هههههه.
- قال أياد: أرجو أن لا تحترق الطائرة به. هههههه.
- قال الضيف هذا الرجل مسكين، يا رب يصل بالسلامة..

قال متعز:

- مستحيل؛ لن يسافر قبلي..هههههههههه

قلت له:...

- لِمَ يا متعز؟ ماذا فعل لك؟
- لن أدعه يصل قبلي، رجلي على رجله..هههههههههه.

ضحكنا خلفه هههههههه.
بعد أن انتهينا من فترة العشاء وفترة السمر التي أستمرت لساعة "الحادية عشرة ليلاً " ونحن نعيش تلك الأجواء بين الضحك والفرفشة؛ أنزوى كل منا في فراشه، ليمضي ساعاته الباقية يتبع في خلده خترفة أحلامه.

***

في اليوم التالي، ومع بدايات ساعات الفجر بحدود الساعة السادسة صباحا؛ جلست على وقع ربت خفيف على باب غرفتي... فتحت الباب، وإذ به معتز مبتسما بوجهي. قلت له:...

- خيرا يا معتز، ما ورائك؟

ضحك قائلا :.....

- هههههه، استاذ فالح نائم تجت الدرج! وحقيبة سفره بجانبه!

حينها استغربت الموقف! وجل أصاب قلبي من غرابة الموقف. فقلت له باستغراب:..

- ماذا تقول، هل أنت صادق؟

- أقسم بالله ...ها هو نائم تحت السلم.

أصبت بالدهشة، بت أخاف من لسعة عينه الحاسدة. قبل هذا الموقف لم أكن أقتنع كثيرا بحسد العين، لم أتوقع أن تكون لها سهام نار تحرق الفريسة..

بعد هذا الموقف صرت بذاتي أتحاشاه، أتجنب الاصطدام به، أكتم أسراري وأخباري السارة عنه، أتجنب مسايرته، جعلني أتوخى الحذر منه. لقد تعلمتُ من درسا في المبالاة بأبسط أمور الحياة، أثبت لي صحة النظرة المأخوذة عليه، بذلك أطبق على ذاته المثل القائل (جنت على نفسها براقش).

المهم خرجت مع معتز بهدوء لنخبر إياد بالخبر والدهشة مرسومة على ملامحنا، بتنا في حيرة من أمرنا، الضحكة محبوسة على أطراف اشداقنا، يشكمها الخجل، لا نستطيع أن نطلق لها العنان، احتراما للسيد فالح، حيث لازالت لم تمتزج العلاقة بيننا لدرجة الألفة.

حيرة صماء كتمت على أنفاسنا، راغت في هواجسنا، الدهشة طاغية على وجوهنا، لا تستكين على نار الصمت والسكوت، يكبلها وجل شفيف وخجل واستيحاء، كأنها تنتظر الفرصة المواتية لتنفجر وتنطلق لساحة الفوضى.

حين سمع إياد بالخبر التمعت عيناه بالعجب، رغم وشاح النعاس المسيطر على محياه، أنه معروف لنا من حيث صفة

الأكل المفرط والنوم العميق. على رغم من صغر سنه، إلا أن شخيره يكاد يعبر إلى ضفاف الجيران، هذه الصفة هي الأكثر قبحا وإزعاجا ملتصقة به. لذا وجدنا ضيفه المسكين صاح في فرشته، يفرك عينيه من التعب الموشوم على وجهه، كأنه عوقب تلك الليلة جراء مشاركته إياد المبيت.

نحن الثلاثة تحركنا إلى مكان مبيت الأستاذ فالح، مضينا بهدوء كشياطين عقرت ظنها المفاجأة، تتبع خطواتنا جلجلة خطل وأفك وتخرص، نرتدي بجامات النوم، فيما كان إياد يرتدي لباس البكيني الداخلي فقط !! هذه هي عادته خلال نومه، لفرط سمنه لا يطيق غطاء جلده.

كان الأستاذ فالح في تلك اللحظة مطروحا تحت السلم، أشبه بالمغمى عليه، مترنح تحت سلطان نوم شبيه باليقظ، متكأً على عصا النكد. مغشيا بعصف قلق جاح ظنه، مشغول الفكر، مشتت الذهن، كئيب الملامح، تائه، ضائع، يتأمل معجزة تنتشله من نار الهم.

دكنة العناء تغشي ملامحه، منهمكا بقرارة نفسه، يختلف كثيرا عما كان عليه قبل وداعه تماما.

ما أن شعر بوجودنا حتى جفل في مكانه، تفاجأ بغارتنا، فقلنا له مجتمعين:...

- صباح الخير يا أستاذ، ألم تخبرنا بأنك ذاهب إلى المطار؟ ماذا حصل؟ لِمَ أنت هنا ؟؟؟.

كأننا في سؤالنا قد صفعناه على خده وسرقنا وسنه من عينيه، جذبناه من سرحانه، اضطرب، جلس متربعا في فرشته، هم يغطي ملامح وجهه تماما. قائلا لنا:-...

- بلا؛ ذهبت للمطار! لكني في المطار تفقدت جواز سفري فلم أجده! كأني نسيته في عجلة التكسي التي أقلتني للمطار!!!.

وقبل أن يكمل حديثه انفجرت بالونة الضحك في أشداقنا.. هههههه. كأنَّ كلماته كانت بمثابة الشوكة التي غز بها تلك البالونات، هههههههه..

انطلقت الضحكة بعفوية من سجنها، أفرج عنها الأستاذ فالح بعد أن أشار إليها بالضوء الأخضر. لشدة الضحكة اهتزت الجدران، لعفويتها كأنها طيور انطلقت من أيكة الصمت، فلّتَ من سجنها. تلك الضحكة جلت هموم الغربة عن صدورنا، بات أحدنا يتطوح في أتزانه، فيما إياد أفترش الأرض، مستندا على جدار الحائط وهو يشهق بضحكه وكركرته، بات كرشه يهتز كالنابض؛ حتى صرنا نضحك على ضحكه واهتزاز كرشه... استمرينا بتلك الأجواء حتى خفت الطاقة في أبداننا، دون أن نستطيع السيطرة على أنفسنا، فض ما بدواخلنا من ضحك، لم استطع كتمان ما بداخلي من لوم معتز على فعلته قائلا لفالح:....

- والله يا أخ فالح ما منعك من السفر سوى حسد معتز لك. هههههه.

ثم أسعفناه بضحكة أخرى اقوى من الأولى، هههههه، كنا بسلوكنا كمن مسح هالة الحزن من وجهه، حتى انشرحت أساريره وشف الحزن من وجهه، أسفر عن ابتسامة صفراء عريضة ملئت شدقيه، حينها لام معتز قائلا له:...

- الله يسامحك يا معز، لم تجد أحدا غير أن تجسدني!! هههههههه.

أسعفنا الضحكة بضحكة جديدة، فقال معتز مازحا:...

- لن أدعك تسافر قبلي. هههههه.
- يا أخي أترك الرجل بحاله، دعه بشأنه.هههههههه.

حينها مسكت بمقبض حقيبته لأعيدها لغرفتي .قائلا له:.....

- اِصْبِرْ عَلَى مَضَضِ الحَسُود، فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُه،

هههههههههههه.. سأخذ حقيبتك حتى موعد سفرك القادم، وعسى أن تكرهوا شيئا فهو خير لكم، فلا تبالي لربما الله يريد لك خيرا، فقط أبعد عن حدود معتز.
هههههههههه
حينها شكرني، والألم يعتصر وجهه الناشف رغم ابتسامته الصفراء التي جاملنا بها، فلم يتقطر منه إلا صمتاً رهيبا.
وأخيرا تأجلت الرحلة لموعد قادم.
كان الأستاذ فالح مهموما، وهمه لم يكن بسبب عدم سفره فحسب، إنما بفقدانه جواز السفر، هذا يعني أنه ربما لن يسافر مطلقا، لأن إجراءات استخرج بدل ضائع للجواز تأخذ فترة طويلة قد تتجاوز ستة أشهر. ناهيك عن الجهد والمصاريف التي ستتبعه. إضافة لضرورة نشر خبر الجواز في الجرائد قبل شهر من أقدامه على طلب استخراج جواز جديد. هذا الإجراءات تتطلب جهدا مضنيا وانتظارا عسيرا، قبل أن يحق له مراجعة السفارة للبت بإجراءات جواز سفر جديد. إنها معمعة عقيمة.
لكنه كان متأكدا من نسيان جواز سفره داخل عجلة التكسي، وذلك حين وضعه على صدر السيارة (الدشبول) وهو يهم في دفع أجرة التكسي، ولعجلته وفرحه بالسفر، أنساه تفكيره الشيطاني الجواز وهو يمعن بسلوك معتز معه.

استعجاله أربكه، بالأحرى تبعته عين معتز، أراد الهرب منها فتعثر بها. مشكلته تكمن في أنه لا يعرف رقم عجلة التكسي! أضافة إلى ذلك؛ فأن قلقه نابع من أنه قد يكون صاحب التاكسي من اللذين لا يبالون بهموم الناس، أوقد يكون جاهلاً، فلا يهتم بأمر الجواز، أو قد يسهو عنه ولم ينتبه له، فيضيع منه، وقد يكون طيبا وذا حس مرهف فيبحث عن صاحبه، وقد يكون

خبيثا وينوي الاستفادة منه ببيعه....الخ..
كل الاحتمالات ممكنة، لذا ساعدته في تخطي عجزه بالصبر والتأني على الأقل من باب التوجيه. اقترحت عليه أن يذهب إلى السفارة يستفسر منها قبل أن يتخذ أي إجراء، قبل أن تتعقد خيوط الشبكة الملتفة حول عنقه، بعد ذلك يمكنه أن يتبع الاحتمالات الأخرى. يمكنه أن يسأل شرطة المرور ومصلحة سيارات الأجرة لخط المطار وووالخ.
فعلا أخذ باقتراحي وتوجه للسفارة، وما أن وصل السفارة؛ حتى وجد جواز سفره ينتظره في استعلامات السفارة، وبذلك حلت عقدة الجواز.
كأن المسكين قد أصبح حديث الشارع، وكأن معتز أعد هدفه تحت مبدأ الفرضة والشعيرة، ثم أطلق عليه سهم عينيه فأصابه في مقتله، وذلك بقوة البعد الثالث الكامنة في عينيه.

***

مرت الأيام على ما يرام وتم أدراج أسم الأستاذ فالح ضمن الوجبة الجديدة المعدة للسفر، رأفة به لما أصابه من صدمة نفسية، وما جرى له من مشهد درامي مع تكسي المطار، تم إبلاغه بموعد إقلاع رحلته في ليلة الأربعاء القادمة في تمام العاشرة مساءا، حيث كانت الرحلات تمضي بمعدل رحلتين أسبوعيا يومي السبت والأربعاء.
في مساء الأربعاء بعد عودتنا المكوكية من تجوالنا في شوارع صنعاء، نتجول في شارع جمال الزاخر والحركة والمنتجات العامة والألبسة النسائية والرجالية المنوعة، إضافة للزحمة المكنونة في باب اليمن وشارع هايل، لأعداد حقائبنا للسفر المرتقب.
صنعاء تعتبر من أقدم البقع المسكونة في العالم، بمجرد الدخول

إليها تشعرك بأنك قد دخلت لكوكب جديد، دخلت في أزقة سبأ وتمعنت بعيون بلقيس، لما لنساء اليمن من جاذبية سليطة.
بعد عودتنا متأخرين كأنه كان ينتظرني على أحر من الجمر، طرق باب غرفتي مستأذنا بأخذ حقيبته تهيئا للسفر.... هذه المرة كنت بمفردي في الغرفة، كأنه ود أن يهرب ويتملص عن أنظار معتز بهدوء تام.... لكننا كنا على دراية بموعد رحلته القادمة، وذلك من خلال قائمة الأسماء المعروضة على جدران وزارة التربية، فأضحى أسمه معروفا للقاصي والداني بعد أن صارت قصته علكة بين نواجذ الجميع، لذا قمنا بتوديعه قبل خروجه من السكن، متأملين له سلامة الوصول.

***

في اليوم التالي ومع أول الفجر، مع زقزقة العصافير على ندرتها بسبب ارتفاع صنعاء عن مستوى سطح البحر بـ 2500 م ... جلست على قهقهت معتز العالية، هههههه - والذي لم يستطع أن يخفي صدمته مما حدث، حيث أنه دائما ما يصحى باكرا، كالقط الذي لا يركن إلا على هدف.
فتحت الباب برفق، فسألته:.....
- خيرا يا متعز... ما بك. لِمَ تضحك ؟؟؟.
قال بصوت مبحوح متقطع وبشدق فاغر عريض، الدمع يترقرق في عينيه، يشتط بقهقهة صاخبة، أشار إليَّ بيديه إلى السلم...قائلا:...
- أنظر..... فالح نائم تحت الدرج!!.
حينها أضفت إلى قهقهته قهقهتي هههههههه!!!
على أثر الدوشة التي حصلت فتح إياد باب غرفته! وهو يرتدي لباسه البكيني المعتاد، وما أن عرف الحقيقة! حتى غص بقهقهة نادرة، بات يهتز، يرتعش، كالذي رعشته صدمة كهربائية.

هههههههههههه.
لم يستطع تمالك نفسه، أسند جسده إلى جدار الحائط، كرشه يخض كالزنبرك، كاد يختنق مع شهقة غص بها، مما جعلنا نفطح من فرط الضحك. كل منا فض مخزونه، أضحى أشبه بقربة خاوية. هههه، مفترشين الأرض، ممددين الأرجل.
هههههههههههههه.
وبعد أن هدأت بنا العاصفة توجهنا إلى فالح وعلامات التعجب بارزة على وجوهنا، نستفسر منه سبب وجوده؟.
من الطبيعي أنّ الأستاذ فالح لم ينم تلك الليلة، حيث أنه أثناء الليل كان يجهز نفسه للسفر، وأكيد أنه ذهب للمطار قبل ساعتين من الموعد، وأكيد أنتظر في المطار مدة ساعة أو ساعتين بعد إقلاع الطائرة لمناقشة مصيره، ناهيك عن طبيعة المشكلة الجديدة التي منعته من السفر، وشدة الصفعة التي كيلت إليه.... تلك الأمور جعلته يفتقد صبره وصوابه، وتحكمه بمشاعره، لاعنا حظه العاثر.
عيناه واجفتان، حائرتان في محيط خياله، فما باليد من حيلة، لا يملك عصا موسى لتغيير مجرى الأحداث، بقي يتقلب في فرشته ذات اليمين وذات الشمال حتى ساعات الفجر أشبه بأصحاب الكهف، من غير أن ترقد عينيه لحظة واحدة، الصدمة فاقت توقعها.
لقد آمن بالله وبالنصيب وبقلة الحظ، ولكن ليس بعقدة السفر التي لازمته.. تعمقت في ذاته عقدة الحسد، جزلتْ فيض صبره. ففي المرة الأولى ظن تخلفه عن السفر جاء نتيجة خطأ أرتكبه بذاته، لكن بعد أن تكررت الحالة؛ تيقن من أن للحسد نصيب في منعه من السفر، وأدرك بأن خطأه في المرة الأولى لم يحصل صدفة، ولم يكن اعتباطا. أنما عين معتز فرضت ذاتها، أحرقت جدول الحظ، جعلته يدور في دوامة الهم وفلكه،

يتخبط دون أن يرأف به حظه.
لم تسلم جرته لمحاولتين سابقتين، ترى هل ستسلم في المرة الثالثة؟ وهل يتمكن من الحصول على محاولة ثالثة من قبل اللجنة المنظمة للرحلات؟
سألناه بشغف لمعرفة ما حصل وما جرى له، قلت له:.....

- بالله يا أستاذ فالح أخبرنا ماذا حصل معك؟ لم أنت نائم هنا؟

كان هذا هو سؤالنا له مجتمعين، فأجابنا وهو خائر القوى، منهك، يكاد الحزن يتفجر من عينيه، ومن وحي غضبه ومشاعره، قائلا:....

- خلال وقوفي في طابور المسافرين، ننتظر ولوجنا الطائرة قدم وفد رئاسي يمني يبغي السفر إلى الأردن لأمر طارئ، وبذلك تم حجز آخر 25 راكبا، لتؤجل رحلتنا إلى الرحلة القادمة، وكنت أحد أفراد المجموعة...

هههههههه انفجرت بلونة ضحكاتنا معا، هههههههه، انطلقت بشدة من أشداقنا الغير معهودة على هذه الدراما الكوميدية، أدرجنا مع ضحكاتنا أسلوب الهزل والسخرية والمجانة والتي شذت وخرجت عن إرادتنا بكل عفوي. بعد المحاولتين الفاشلتين؛ كنا قد تعرفنا على بعضنا، رفعنا الكلفة بيننا، اندمجت خواطرنا.
إذا تأجلت الرحلة للمرة الثانية ولأجل قادم. هههه.
لم ندع هذا الموقف يمر علينا مرور الكرام، تجاوزنا اللباقة والمنطق، صرنا نعد الطرائف بشكل دبق، أغدقت ضحكاتنا تشيح لون السكر في أبداننا، سكارى، صار كلا منا يجر ذاته لدكة الاتزان دون أن يفلح. نرطن بـ هذرنا، نألف القصص والنكت على ما نحن عليه دون أن نراعي هالة الحزن

الموشحة بها وجهه. أنها فرصة لن تتكرر.
ومن خلال العِشرة البسيطة والملاطفة التي جمعتنا به، اكتشفنا طيبة فالح وغر معدنه الأصيل، لمسنا نظافة قلبه، ذلك ما جعلنا نقترب منه أكثر وأكثر، نزيح الحواجز بيننا، فالغربة آفة أنْ لم تدعسها بالضحك والمرح؛ تقتلك بالنكد والكآبة، تحيل الصبر إلى نار توري فتائل العمر بقدحة التفكير، ولكن شر البلية ما يضحك.... قلت له:...

- لا تهتم يا أستاذنا العزيز، لقد قصرت في دفع البلاء عن نفسك... كان عليك أن تدفع كفارة العين الحاسدة التي أصبت بها... قديما قالوا:.... بأن الحسد يلازم صاحبه أربعين يوما، وأنت لازلت لم تكمل أسبوعا واحدا، وهذا يعني بأنك سوف لن تسافر قبل أن تنتهي المدة. هههههههههههه.

حينها ارتفعت القهقهة بيننا، حينها شاركنا ضحكته الباردة التي لا نكاد أن نسمع صوتها وهو ينظر إلى معتز بعين شزره قائلا له:..

- الله يستر يا معتز، اتركني بحالي، لا استطيع مواجهتك، أرحمني يرحمك الله.... هههههههههه.

هنا ازدادت شدة ضحكاتنا ومرحنا، هههههه.. فرد عليه معتز بعين صلفة قائلا:.....

- كم تدفع لي لأكف عن ملاحقتك وأدعك تسافر؟؟ هههههههه.

أجابه إياد:...

- ما يكفي إطعام 60 مسكينا حسب الشرع، هههه.

صار معز يهبت به فقال:...

- دعه يطعم نفسه أولا(دلالة على بخله) هههههههههه.

اشتدت قهقهتُنا، فضربنا بذلك يوما من سفر العمر في سجل

التأريخ، لن ننساه أبدا.
حينها نقلت الأجواء لجو الألفة، بعد أن جلبت لهم الفطور وجلسنا نفطر معا ونحن نتداول القصص على سِفرة الفطور، محاولين فك أنشوطة العقدة التي تلبس بها، تداولنا خلال جلستنا أطراف الحديث عما جرى وعما سيجري له في الرحلة القادمة، وعما نتوقعه وما يتوقعه معتز بالذات.
أخذنا الخيال الواسع الذي بات يسرح بنا خارج حدود المنطق، جنحنا بأفكار جذلة ومغبطة، انهمرت علينا كرذاذ المطر، فاضت بنا جداول المرح بعد أن انفجرت قروؤنا، لتصب كشلال فيض من الطرائف في أحضان السيد فالح، كشطت شيئا من همومه التي لصقت به كسخام القدر، تلك التي أشدقنا بها ومرحنا بها، حتى سدح كل منا على الارض.
قال إياد:..
- أكيد هناك تأجيل آخر ينتظره. هههههههههه.
قال فالح: ..
- فأل الله ولا فألك، إلا يكفي ما جرى لي؟
سألته:..
- لمَ يا أياد؟ ماذا خطر في بالك؟
- ألم تقل بأن الحسد يلازم الشخص أربعين يوما... لازلنا في الأسبوع الأول، وأكيد تنتظره مفاجأة أخرى حتى يتمم الأربعين يوما...هههههههه..ماذا تقول يا متعز؟
- بعد أن شهرته على مستوى اليمن لابد من أن أشهره على مستوى القارة ليدخل موسوعة جينز. هههههه
لم تعد في محجر العيون من دمع لـ تصبه، بت لا أحتمل ضحكة أخرى، أهجس بعضلات البطن ذابت في خشونة الطرفة.
قلت له:...

- بالله يا أستاذ فالح دعني ألتقط معك صورة تذكارية، فإذا ما اشتهرت سأشتهر معك، ستهتم بي الصحافة واكون من أصدقاء المشاهير. هههههه.

قال إياد:.....

- أنا رأيي جميعنا سندخل موسوعة جينز، هناك جائزة مغرية من شركة الطيران لمن يتأخر عن السفر ثلاث رحلات فأكثر دون إرادته، نتعارك مع فالح قبل الرحلة بساعتين، ثم نشكيه للشرطة فتحجزه الشرطة فيتأخر عن الرحلة. هههههه.
- ايه ..بايخة جدا. هههههههههههه. قلت له ذلك. فاشتد الضحك.
- أعوذ بالله من افكارك السوداء.... قال فالح ذلك.
- لا هذا ولا ذاك أجاب معتز، أرض اليمن كلها براكين خامدة منذ آلاف السنين، سيصيب مدرج المطار زلزال يمنع هبوط وإقلاع الطائرات إلى أجل غير مسمى. هههههه.

أجاب فالح بامتعاض وفي وجهه حزن جهم:...

- دخيلك يا معتز، والله بت أخاف من توقعات، أهجس في كلامك شر يمس قلبي، بت أخاف منك ومن لسانك. هههههههههه.

قلت مازحا:..

- لا لا لا تهتم... هذه المرة سيدعو لك بسلامة الوصول.

أجاب معتز:.....

- هههههه، لا والله... أنسى ذلك... لن أدعه يسافر قبل أن أضع رجلي في الطائرة. هههههههههههه.

كان فصلا ممتعا نشطنا به الدورة الدموية التي جزلت هموم الغربة والروتين في حياتنا.....

حقيقة ما حصل لفالح فاق الخيال، لا يمكن تصديقه، بل كأننا بتنا نرى بأم أعيننا أحداثا من الخيال تصب في جحر السيد فالح ما كانت تخطر لنا على بال، لقد جر الحسد حظ الأستاذ فالح إلى عالم التحنيط، جمد على ركن عين معتز، تكبل بالبؤس والكآبة.

***

مضت الأيام متسارعة ونحن نتذكر الموقف، ونؤلف القصص والطرائف حول الاستاذ فالح، فموضوع سفره صار الشغل الشاغل لحديث الشارع، أنه فعلا موضوع نادر وقصة طريفة مستحيل أن تتكرر، لن تجد لها مثيلا في أغرب قصص الخيال؛ حتى في قصص الف ليلة وليلة. حيث الواقع المؤلم، وتتابع النكد، وتسلسل الأحداث، تجعل لها نكهة أشبه بالأكل الهندي، يطغي عليه ألوان الربيع من بهارات وكركم وزعفران وأنواع الفلفل والبصل، أضحى فيه نكهة بهارات حارة، كأنَّ القصة لم تنتهي بعد، كأنها لها وقائع أخرى لا تقل مفاجأة عن ما سبق. صرنا بشوق ننتظر نهاية القصة في قادم الأيام....

أحيانا الأقدار ترسم لنا مسارات الحياة، وأحيانا تلازم مساراتنا بعسر هميم؛ حتى تلف حبل اليأس على الأعناق، فالمسكين فالح لم يخطو خطوة إلا والعسر كبل ساقيه.
نحن بدورنا لم نصدق ما حدث، كنا قد نشرنا الوقائع على نطاق مدينة صنعاء، جميع معارفنا في ساحة التحرير علموا بأخبار السيد فالح، وهم بدورهم تداولوا الخبر مع معارفهم كما تفعل العجائز النمامة. كنا قد طرقنا قصته في مقاهي المدينة من باب الفكاهة وليس التشهير، تلك المقاهي التي تعتبر ملتقى

للأغراب والمدرسين، ومرفأ لسماع وتداول الأخبار الجديدة.

***

أنتظر دوره وكنا معه من المنتظرين، بيتنا نترقب أسمه في قائمة المسافرين على جدار مديرية التربية. كلنا في شوق لمعرفة مصيره من الرحلة القادمة، ترى هل ستجدد مغامرته؟ هل سيفلح بالنجاة من عين معتز الذي أصر على أن لا يدعه أن يسافر قبل سفره؟.. بتنا ننتظر الموقف القادم بشغف.

حين طالعت أسماء الوجبة للرحلة القادمة؛ وجدت أسمي إلى جانب أسم الاستاذ فالح ضمن القائمة المصرح لها بالسفر، لقد إدراج أسم الأستاذ فالح بأمر من إدارة المطار كونه أخر من قبلهم. وكان قد أشتهر بسوء الطالع بين الاوساط.

حدد موعد السفر في تمام الساعة الخامسة مساءًا من يوم السبت، غير أن الرحلة تأخرت كثيرا فلم تقلع الطائرة إلا في تمام الساعة الخامسة صباحا من اليوم التالي، أي بقينا ننتظر مدة اثنتي عشرة ساعة حتى أقلعت بنا. كان سبب تأخيرها هو: لقد شحنت الطائرة بأطنان من السمك إلى الاردن... حينها كنت واقفا في وسط طابور طويل، فيما كان الأستاذ فالح يقف خلفي متذيلا الطابور. كنت أميزه عن بعد، من طوله الفارع، وسمرة بشرته البرونزية، كنت أسال نفسي وأنا أنظر إليه: لم هذا المخلوق لا يخالف تسلسل الطابور؟ ألا يرعوى من ما حصل له خلال المرات السابقة؟....

لن يستطع مخالفة أدبه، لورعه وأخلاقه العالية لن يتجرأ أبداً تجاوز النظام، أخلاقه ووازعه الديني يمنعانه من ارتكاب الغلط، فهو محصن بتقاليد وأعراف ومبادئ قبلية جليلة.

صعدت إلى الطائرة، كانت من نوع بوينغ 737، جلست بالقرب من المدخل، بالجزء الأمامي من الطائرة حسب رقم

تـذكرة الكرسـي المخصـص لـي، فكنـت حريصـا علـى أن أتتبـع الذين يدخلون من بعدي بحثا عن الأستاذ فالح...
أغلـق بـاب الطـائرة ولـم ألحـظ صـعوده إلـى الطـائرة، انتـابني ريـب حجـزه مـرة أخـرى، فصـرت الـوم معتـز علـى عينـه الحاسـدة، تلـك التـي تنطـق بمـا تفـيض بـه الـنفس المريضـة، نفـس لا تشـعر سوى بالنقص أتجاه الآخرين.
صـرت أسـأل نفسـي عـن البعـد الثلـث فـي لغـز عـين معتـز؟... بعـد المنـاظرة والتفسـير وتكـرار تأجيـل رحلـة السـيد فـالح الدراماتيكيـة، تيقنـت تمامـا مـن شـر العـين الحسـود- قُـلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ الْفَلَـقِ.... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ -----
بـت أحـادث نفسـي وأجيبهـا: تـرى كيـف سـتكون حالتـه النفسـية؟ حـين يُبَلـغ بتأجيـل رحلتـه الثالثـة!!!! أكيـد سـينهار نفسـيا، لأنـه قـد تجـاوز مرحلـة الصـدمة والتكـرار، دخـل مرحلـة العـذاب النفسـي. وضـعية حالتـه مجروحـة، لـن تـرمم مـن مـا لحـق بـه مـن تأجيـل متكـرر لرحلاتـه السـابقة، تلـك التـي جزلـت شـوقه للسـفر. تـرى كيـف سـيتخطى أزمتـه الجديـدة؟ صـرت أفكـر بحظـه العـاثر ونـوع النحس الذي لازمه.
علـى أيـة حـال وصـلت الـديار، ووصـل مـن بعـدي بأسـبوع كـل مـن معتـز وإيـاد. وقـد تحـدث ألـيَّ معتـز عـن حجـز الأسـتاذ فـالح، وثلاثـين آخـرين بسـبب شـحنة الأسـماك الكبيـرة المصـدرة لـلأردن، لينتظر رحلته الرابعة....
قال معتز وهو يوصف حالته:....

- لقـد أنهـار نفسـيا، أصـبح ذات مـزاج عصـبي، لـم نسـتطع أن نقـم حفلـة ضـحك بوجـوده، اصـابه يـأس شـديد، حينهـا قـرر أن تكـون محاولتـه القادمـة هـي الأخيـرة، وإلا فأنـه سـيعزف عـن السـفر نهائيـا إذا مـا تعسـرت معـه الرحلـة مـرة أخـرى. مـن جهـة أخـرى صـار يتجنبنـي، يتهـرب مـن

مـواجهتي وملاقـاتي، بـل أنــه زعـل منــي ولـم يعـد يتحـدث معي، فترت العلاقة ما بيننا.

لكنــه أخيـرا نجـح فـي تخطـي فشـله فـي الرحلـة الرابعـة برفقـة كـل مـن معتـز وإيـاد، مثلمـا قـال لـه معتـز: لـن اسـمح لـك بالسـفر قبلـي. بعــد عنــاء وضــيم؛ أخيــرا فكــت قيــدها عــن ســاقيه تلــك العــين الحاسدة.

مدن دافئة

مع بزوغ شمس يوم جديد وهي تفرش بساط حنينها على أديم الأرض، اجتاحت هواجسي أطياف شتى برفقة ذلك العبق المندح من ثغر الزهور البهيجة، وهي ترشق موجات الكرى الرائبة في أجفاني بنفحة من عطرها الزاكي. تلك الحالة اشتطت خواطري من سيل الأرق وأوصالي من العناء، أضفت على شاطئ الذهن ملأة سعد وأمل، غزلته من وحي ذلك الصبح البشوش.

نهضت مُتَثَائِباً والعياء قد أخذ جُلَّ زهوي، وهن يخامر المقل، عربة تجر خلفها جسدا أجدبا مثقلا بالكسل نحو شرفة الدار، لألقي نظرة على وجه الصبح الجديد، الذي تعودت على اشراك ذاتي في مهرجان وروده البهيجة كل صباح.
كنت أعد نفسي كملاحظ ومستمتع ومتشوق لتلك المجاميع من الزهور المسترسلة ألوانها، القابعة تحت ظلال أشجار باسقة، نَضِرةٌ. لأطنب اذنيَّ بزقزقة عصافير وتغاريد بلابل مسرة، لـ اشفق نظري بتنهدات قوس قزح تلك الزنابق المشتعلة بهجة ورواء، تحت خيوط شمس مستطيرة بندى الزهور.
خلال استرسالي عبر تلك الأجواء المبتهجة، لفتت انتباهي حمامتين يتحاوران في همس كحبيبين! لم أَلْفَاهُما من قبل،

تهـدلان بشـغف وسـط الحديقـة، فـي ظـل تـآزر ملفـت للنظـر، مجتمعتين على نهر الود، في جذوة ممتدة لضفاف الرجاء.
أحـدى الحمـامتين كانـت بيضـاء اللـون، ذات منقـار أحمـر صـغير كحبـة الـرز، يكسـو قـدميها ريـش كأجنحـة الفراشـة، ممـا يـدل علـى أنهـا قادمـة مـن بـلاد الـثلج البـاردة. فيمـا الأخـرى كانـت زنجيـة اللـون، ذات منقـار أسـمر داكـن طويـل وقـدمين أملسـين، تعتلـي رأسـها قلنسـوة بيضـاء براقـة، تحمـل فـي كيانهـا أوصـاف شـمس محرقة، مما يدل على أنها قادمة من بلاد الشمس الحارة.
أطرقـتُ أذنـيَّ إلـيهنَّ، مصـغيا لمـا دار بـين الحمـامتين مـن حـديث عجـب، أغـدقتْ كـلٍ مـنهنَّ بأسـرار قـدومها إلـى الأخـرى، فاستمتعت بقصص خلاف وتناقض شجية، استلذذت بها.....
قالت البيضاء:...

- هجـرت بلـد الثلـوج لمـا فيهـا مـن صـقيع يـروج بـين القـيم، أودت إلـى تجلـد المبـادئ وعقـص الـنعم، عواصـف هوجـاء لا تبقـي ولا تـذر، عجـت بـ سُـنن الاعـراف والشـرائع، أسـتباحت الأمـان، زلزلـت النفـوس، عصـفت بالميـادين.. لسـمة العنـاء المفتعـل، تسـلل الفقـر لميـادين المـدن، طـاف الأزقـة والشـوارع، جـاش بـين عيـون النـاس، لاك النفـوس والأهـواء، عـسَّ بـين الأضـواء، دس رعشـة الخـوف والجنـون والهلـع بـين الضـعفاء، غـدا المصـير مـبهم بـلا سـطح وسماء.
احـتكم الـدخلاء واللصـوص بمقـدرات الشـعب، حـال ذلـك إلـى افتعـال الأزمـات، أودى إلـى انحـدار فـي مسـتوى الحيـاة، الظلـم طغـى بـين البشـر، الأقـدار أضـحتْ تراكيـب أحجيـة ونـزق، تـدار حسـب أهـواء الشـياطين المتسـلطين، لا مسـتقبل واضـح فـي الأفـق ولا أمـل زاهـر بتحسـن الأوضـاع. بـات الفكـر يتـأوه فـي قعـر الظـن، الشـخوص عـاجزة عـن مسـاعدة أنفسـها، أضـحى كـل مـنهم مركـون كالحجر المؤذي قابع في قارعة الطريق.

لا طقوس في مواسم الحب، لا أفراح تزين الجدران، كأنَّ البلد أضحى صورة منسية لا احد يلتفت إليه، حتى غدتْ أحلام المساكين شراشير ذاكرة تلهو بها الريح، حياة جرداء بلا رجاء، شرف نض ثوب الحياء، مشاعر متجمدة، رحمة مقطوعة السبل، نفوس ترتعش تحت ظل سياسة التقتير دون تقدير، وخوفا من المصير المجهول هربت من ظلم الفلول.

قالت الزنجية:-...

- ربما عندكم الحياة أيسر مما رأيت من قسر ومرار، بلد مركون فوق كوة من نار، مثقل بالغموض وزخم الأسرار. ظلم سائد، وحكم يتراءى في الأفق منار.

رغم الخير الوفير، والرزق الميسر ونعومة السرير، والكلأ المفروش في البقاع كالحرير، نعيش عيشة التعساء، الحياة مريضة تمضي دون حب ورجاء، دون إحساس، دون رخاء. الأطياف ترتعد في الجفون، البأس حاضر، الحرية مهلهلة، الفكر محجور، النفس مغشية بالكأس، والظن السيء مكنون في كل الأمور.

الخوف والرعب كالعشب مزروع في الطرق، مبثوث في الأزقة والشوارع، الأحزان عائمة في كل البقاع. الأفكار طيورا مهاجرة، السعادة سراب ظن، بلد يمضي بلا أمن واقتناع، أذا ما تنتقد حالة؛ تتقد فتائل الشك، فتصبح سليل السجن للابد..

وخوفا من أن يبلعني الإعصار، هجرت الأهل والأخيار.

البيضاء:...

- مذلة سلب الحرية لا تداني مذلة الجوع والحرمان، إذ سلب الفكر جهرة يمكن ممارسته في الخفاء، بعيدا عن أنظار المغرضين والمنافقين، ولكن تتوقف الحياة إذا ما سلب الروح

من الجسد. الجوع وحش مفترس، لن تصمد أمامه غله المبادئ ولا الضمائر، فقطع الأعناق أهون على المرء من قطع الأرزاق.... وخوفا من أن يقيدني الزمن في سجن الحرمان، اطلقت لجناحي العنان.

الزنجية:...

- الفقر؛ قنطرة صغيرة، يمكن عبورها مع مرور الزمن، البؤس غيوم صيف كذابة، تنقشع مع بزوغ الشمس. لكن؛ ماذا نفعل للمشاعر المهانة، تلك التي لها وقع على صفاء الذهن واستقرار النفوس، أن جرد المخلوق من عقله؛ صار هيكلا بلا سحر، بلا أنوار، كمصابيح مطفية.

أن جردت الحرية من الذات؛ تتعقد صيغ الحياة، فلا خيرا في روح تشقى في العدم، لذا قررت أن أعيش ملكا بعيدا عن عديمي الذمم.

البيضاء:..

- سأقص عليك قصة مما رأيت، تفتقر للشفقة والرأفة---

حل رجل غريب في البلدة، غريب في طبعه وأخلاقه وكرمه، لكنه عريق في أصله وانتمائه. شده الحنين للوطن بعد أن صرف جل عمره في متاهات غربة الزمن. كان ميسور الحال، يستطيع أن يخلق الفرصة من المحال، أشترى بيتا مرموقا وسيارة فارهة، ود تشغيل أمواله وذهبه في مشاريع تخدم المجتمع، لذا فرش أحلامه بين أعين الحساد وقليلي الفأل دون أن يعلم بذلك.

في الحقيقة أستقر في ذاته ولم يستقر في فكره. تفقد من يتأمله ولم يتفقد أثر خطوته. ساعد الفقير والضعيف ولم يدرك نزق الأحمق والحاسد والسخيف، أراد خدمة الجميع وأرادوا النكال

به وسلب ماله، فهو في نظر اللصوص كنز لن يعوض.
ذات يوم؛ وهو ماض في طريقه لعمله، أقلَّ رجل معتوه في سيارته من باب الرحمة والرأفة والإنسانية إلى حيث يبغي. هيئة الرجل تُوحي إلى أنه من المساكين، وفي حقيقة الأمر كان يخفي تحت جلده خبث الماجنين، فلا هو معتوه ولا هو مسكين، بل هكان لصا مكين من العابثين.
لم تعد للإنسانية جذور طرية في المجتمع، وأن طفحت في وجه شخص تكاد تكون في غير محلها.. أضحى سطو الأموال والبيوت من شعائر الناس، بأفعالهم تجاوزوا حدود المعقول، أضحت من العقد التي لا يمكن اجترارها، بل أصبحت ركيزة ثابتة من العادات والتقاليد يفتخرون بها... فمن طبع البشر التماس الحاجة والتعاون في مجالات الحياة، غير أن الحياة مضت تجري بما لا تشتهي السفن، على عكس أهواء ورغبات الناس.
على أية حال كان هذا المعتوه بارعا في تمثيل دوره، بحيث تمكن من تمويه وغش ذلك المسكين بصورة احترافية، تمكن من أن يغشي بصيرته بغايته المسمومة.
أخرج هذا المعتوه رزمة من النقود المزورة، وتظاهر بالجنون، صار يرمي ورقة تلو الاخرى عبر نافذة السيارة، وهو يضحك ضحكة المجانين، كأنه في حالة هستيرية. ينظر إلى الغريب بازدراء، والغريب ينظر اليه بعين الرأفة والشفقة، محاولا ثنيه عن سلوكه المشين دون جدوى.
تمادى المعتوه برمي النقود مع سير العجلة، مرة تلو المرة صار يزيد من قيمة النقود المرمية، فبدل من أن يرمي ورقة ورقة، صار يرمي ثلاثة وخمسة وريقات برمية واحدة. صار يزيد من قهقهته المزرية الكاذبة، حتى تمكن من أن يستحوذ على مشاعر صاحبه، أدرك حدود طيبته التي أعمت بصيرته، هجس بالشقاء

يطغي على ملامح وجهه، فامتلأت مآقيه بدموع الأسى.
في تلك اللحظة رمى المعتوه الرزمة كاملة، لم يستطع الرجل الطيب من أن يتغاضى عما يجري، لم يستطع أن يتحمل وزر هذا المعتوه، عصفت به مشاعر جياشة، حينها أوقف عجلته ليجلب رزمة النقود المرمية وهو لا يدري أنها مزورة.
صارت المسافة بينه وبين الرزمة تزيد عن50 مترا، وما أن ترجل من سيارته ليعيد رزمة النقود؛ حتى حلَّ محله ذلك المعتوه خلال لحظة، ثم أنطلق بسيارته بأقصى سرعة إلى جهة مجهولة، تاركا الرجل الطيب يعاني في وسط الطريق يستنجد بصمته وهو في ذهول وصدمة - عيناه تتبع أثر عجلته المسروقة، وهي تنزوي بين منعطفات الطريق حتى تلاش خيالها.
خارت قواه الجسدية والنفسية، احترقت أحلامه الفتية. كانت وقع الصدمة عليه شديدة، أوهنت قواه، تقطعت به السبل، تبخرت أحلامه، أصبح يعيش في سكرة وذهول.
كان يمشي خلف أوهام، في مسالك لا يعرف لها مخرج، متكأ على عصا أفكاره الهشة، تلك التي لا تقاوم وقع الصدمات. أنها بداية المشوار، بدأت الآمال تزحف لحتفها، أرادها تبهج وجوده، فجنى ثمرة ضعف خياله.
أسدت ظنونه الموبوءة إلى جرح لم يكن في الحسبان، ولن يندمل إلا بالعثور على سيارته...
في خاطره استحضر حساباته قبل أوانها، أسرف كثيرا في دجى غيه دون أن يعلم، السلطات لا تعنيها الأمان، الرشوة سائدة، الفصل خريف دائم. السرقة أضحت من طباع الناس.
بعد ليلتين رنَّ هاتفه، أخبروه عن مكان تواجد سيارته، كان المخبر فاعل خير.
حزم أمره مع نفسه، تفاءل خيرا، توقع أن الأمر يسر. تأمل

بـزوغ القمـر فـي ظلمـة ليلـه. غـار فـي عمـق المجهـول باحثـا عـن عجلتــه، تشـتت بتقاطعـات خطـوط الظـن، بـات يـدور فـي دوامـة التيــه دون ان يــدرك نهايــات تأملاتــه، لا يســتطيع جمــع شــتات أفكاره في بؤرة يقين واحدة ليتدارك نفسه.

بعـد أن جـد فـي بحثـه؛ عـاد مـثقلا بـالهموم، خائبـا، منزويـا فـي جحر أحزانه، كان قد أمضى يوما شاقا من العناء دون جدوى.

خـلال عودتــه للبيـت فـوجئ بسـرقة أثـاث بيتــه عـن بكـرة أبيــه، تفاقمـت أحزانــه، استسـلمت أوهامــه لجحافـل يقظتــه، لقـد تحـول قصره لكوخ أشباح.

بعد أن ذاق الويل، عزم على العودة من حيث اتى.

الزنجية:...

- مـا شـاهدت وسـمعت مـن قصـص، أشـنع وأقـبح ممـا رويـتِ. عرفـت رجـلا متزنـا فـي سـلوكه، يصـغي لـه الجميـع؛ لحلمـه و وقـاره، وتقـواه، ورزانــة عقلــه. يجيـر الضـعفاء، يرشـد الأقويـاء، يشـــارك المســـاكين والفقـــراء الاحـــزان والمســـرات، عـــرف سـرائرهم، وثـق بهـم ووثقـوا بـه، كـان يعمـل فـي الخفـاء بعيـدا عـن أعوان الحكم الجائر.

لـم يكـن مـن الأغنيـاء، لكـن كـان فقيهـا مـن المـزارعين، يبـذر سـحره بـين الحشـود، ثـم يتأمـل جنـي ذلـك السـحر. صـار فـي نظـر الجميـع صـومعة يـئم إليـه النـاس. صـار لحنـا يطـرب الأصـوات، مالـت إليـه الأفئـدة. مـع مـرور الـزمن صـار سـيفا بـين العصـي، الكـل يقلده ويرنوا لغمده.

لكـن الحسـد حـين يتفشـى فـي المجتمـع، يكـون تـأثيره كالنـار فـي الهشـيم، الأفكـار السـيئة أكلـت الحسـنة منهـا، كـان قـد وشـى بـه أحـد الفاسـدين إلـى الحـاكم الظـالم، فأسـتدعيَّ للـبلاط بحجـة تطاولـه علـى الحـاكم. أتهـم بمـؤامرة إسـقاط الحكـم، وهـذه قمـة الخيانـة، أودعـه

السجن، ذمه، لامه، كاد يحكم عليه بالإعدام لولا إشارة مستشاره عليه، أقترح بأن تكون له فرصة الدفاع عن نفسه، كي لا يشاع بين الرعية ظلم الحاكم له.
ولإخماد فتنة الشعب؛ أخذ الحاكم بنصيحة مستشاره، ثم قرر محاكمته. فقال الحاكم للحكيم:- ..

- مثلما تدخلت في ما لا يعنيك ستلقى ما لا يرضيك، تصرفاتك وأعمالك الغير مسؤولة جارت عليك بما لا تشتهي نفسك.. لن تستطيع أن تمخر عباب البحر دون أذن مني، وإلا سيجرفك التيار سريعا إلى الهاوية..

حينها سلمه خروفا ضامر البطن خائر القوى، لكنه بصحة جيدة. خصص له في اليوم الواحد من العلف والشعير ما يكفي لثلاثة خرفان.
طلب منه أن يعيد الخروف اليه بعد مرور شهر من تاريخ استلامه، على أن لا يزيد وزنه حبة خردل، وإلا سيكون مصيره مرهون بحد السف.
أراد الحاكم أن يوصد على الحكيم باب النجاة، أن يمحيه مثلما تمحو الريح معالم السابلة من كثبان الرمل؛ وبذلك يكون قد تخلص من عصا حكمته التي عبثت برماد الجمر إلى الأبد.
في المقابل كان الحكيم قد أدرك نوايا الحاكم، لذا ظل ملتزم بالصمت، محاولا أن يستنبط فكرة من ما يحاك ضده، ليجعلها سُلَّما لحياته، وليعيد سهم الحاكم إلى صدره.
لم يجد مناص من قبول الحكم، تاركا مصيره بيد الله.
صار الحراس يأتون له بالمؤن ولن يغادروا إلا بعد أن ينفد العلف من أمام الخروف الجائع، هكذا دواليك مرت الأيام ومضى الشهر دون أن يزد وزن الخروف حبة خردل.
تعجب الناس والحراس، بان الاستغراب واضح في وجوه

العامة، صاروا يغزلون حوله قصص خرافية، هناك من يقول أنه من المَلَك بهيئة بشر، وهناك من يقول أنه ساحر، وهناك من يقول لعدالة السماء دخل في ثبات وزن الخروف.... اااالخ، والكثير من الحكايات نسجوها بينهم على فطرتهم.
ومثلما استغرب الناس، أصابت شظايا حكمته مواجع الحاكم المغرور، أستغرق في حيرته، تمادى في غضبه، دعاه أمام الملأ لتفسير غرابة الأمر.
أذاً نجا من كيد الظلم بحكمته ونباهته، حيث كان يربط ذئبا كاسرا جائعا أمام الخروف في أثناء الليل، فيدب الرعب في أوصال الخروف، فيبقى ساهدا، مرعوبا، موهن القوى، ينتظر أجله، فيسحن كل ما يأكل نهارا حتى يشعر بالجوع مرة أخرى ليزداد شراهة ونهما.
كان قد أستنبط أفكاره من وحي الطبيعة، قدمها كتجربة على طبق من ذهب للحاكم الضرير. على أثر ذلك تم نفيه لجزيرة نائية، لكنه ترك أثراً بليغا في المجتمع الفقير، بحيث صار الجميع يتبع أثره.
كنا نعيش عيشة الخروف! ناكل ولا نسمن، نعيش ولا نتأمل، نكره ولا نحب، نحلم ولا نتجرأ. من تستر بالخوف ضمن سلامته، هكذا أصبحت حياتنا؛ تلسعنا النحلة كلما وددنا أن نتذوق طعم العسل، فيدب الألم في أوصالنا، فلا نستطيع أن نتحسس ظل أحلامنا وطيب خواطرنا.
شهقت البيضاء ثم قالت:...

- حسبنا الله ونعم الوكيل، ذاك هرب وذاك نفي، والأثنان شاقهما بلاء الوطن، إذا حسنا فعلنا في تبديل ثيابنا، لا بد من تغيير نمط العيش كي ننتشي بلذة الحياة، لا بد من حركة تغنينا بالأمل. نحن ألآن نلتمس جزء مما كنا نحلم به، في ربوع هذا البلد الدافئ، النخل باسق والثمار طازجة، والمدن عامرة، والأمان سائد. كل

شيء سهل المنال، والحياة مستقرة هادئة.

- جمعتنا الإرادة بغير ميعاد، أنها أجمل صدفة، برفقتكِ سأعشق الحياة.

رفرفت البيضاء فرحة جذلى محلقة في أفق السماء، تبعتها الحمامة الزنجية بامتنان وحب وهيام، عندها حمدت الله على نعمة هذا البلد الدافئ.

صراط القلوب

منذ نعومة أظافره تربى على مبدأ العفة والفضيلة ونكران الذات، حتى أصبحت تلك السمات الرقيقة في حسها والقوية في بنيانها ركائز شخصيته، كان قد ادبه القرآن قبل أن يؤدبه أبوه والمدرسة، وجد به ثروة من الحِكَم والعِبَر، أكتنز منه ما شاء، غرف من بحره ما لذ وطاب، رفد فكره بالأسس والقواعد من منهل لن ينضب، رس به العقل وثبت به القلب.

منذ صغره كان قد حفظ أجزاء كاملة منه، تعلم أصول الفقه والتوحيد والسنة المحمدية، في تكوينه صار نابغا يقارع الجهل والجهلاء.

في خطواته المرحلية كان يعد ذاته بمثابة فارس همام جس تكوينه الشخصي، حقق حلم أبيه، أضحى مثاليا في قوام الحسن والسلوك والتصرف والتعامل مثلما تمنى والده وزيادة.

كان أبوه قد حرص على غرس مبادئ التربية الصحيحة وأسسها في ذهن ولده منذ الصغر، بذر في ذاته المثل والقيم الرفيعة، لتضفي عليه مراتب الكمال من حسن أدب وفقه وثقة بالنفس.

تلك المُثلٌ كانت بمثابة طاقة ثابتة في شخصه، قناديل نيرة تسطع بذهنه، تبرز هيبته بسلوكه وأدبه. لوالده الفضل الكبير في غرس تلك البذور من الفتنة في ذاته، له الأثر الواضح في تميزه بصفة الإيثار والوجاهة والعفة. أنصبت جل اهتماماته بتركيزه

علـى مجـال التربيـة الإيمانيـة، والخلقيـة، والعقليـة، والبدنيـة والنفسـية، كمـا أهـتم بالجانـب الاجتمـاعي والـوطني، ليصـونه مـن المخاطر الخارجية والداخلية وانزلاقاتها.

كـان يـدرك بـأن الطفـل هـو نـاتج أبـوه.. أي بمعنـى آخـر؛ صـور الأبـن هـي نسـخة طبـق الأصـل مـن أخـلاق وأدب والـده، مـع رتـوش إضافية تلمع حدود الشخصية في مجال حياته.

كـان قـد أوصـاه بـالتقوى وحسـن الأدب والمـآب، فقـال لـه كقـول العـالم الجليـل الصـالح **رويـم** لابنـه فـي بدايـة نشـأته، حيـث قـال له:....

- **[يا بني أجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً]**.

أي اسـتكثر مـن الأدب حتـى تكـون نسـبته قياسـا إلـى العمـل كنسـبة الـدقيق إلـى الملـح فـي خلطـة عجينـة الخبـز. كثيـر مـن الأدب مع قليل من العمل الصالح، خير من كثرة العمل مع قلة الأدب.

أراده أن يكـون مثاليـا فـي سـلوكه ليفتخـر بـه، فتحقـق لـه مـا أراد ومـا ظـن بـه، تربـى علـى ديـدن أبيـه مبتعـدا عـن الكـذب والغـش والتصـنع والإباحيـة والتبـذير، أشـبع ذهنـه بخصـال المكـرمين مـن الأوليـاء والصـحابة، محصـنا فكـره بأحاديـث الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم، وبكـم هائـل مـن العبـر والقصـص المستسـقاة مـن وحـي القـرآن والتـراث، لـتكن بـين يديـه أسـلحة يتفـادى بهـا مهـاوي الخطـأ، ومـا إلـى ذلـك مـن أمـور الـدنيا المفاجئـة التـي حتمـا سـتعتري طريقه...

علـى سـبيل المثـال لا الحصـر، كلمـا أراد أن يكـذب ولـو كانـت كذبـة بيضـاء، تـذكر قصـة عـالمٍ جليـلٍ للاحاديـث الشـريفة، حـين أنتقـل مـن مدينـة الرسـول (صـلَّ الله عليـه وسـلم) إلـى البصـرة ليأخـذ حـديثاً عـن رجـل سـمع بأنـه قـد سـمعه عـن رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم... بعـد أن قطـع تلـك المسـافة الطويلـة لإيـام وليـالٍ جاهـدا بروحـه وحصـانه وفـي نفسـه عـزم وإصـرار علـى الوصـول

لمأربه، وحين دنى من غايته رأى الرجل يوهم فرسه الجائعة بأن في ثوبه طعامٌ حتى أقبلت عليه الفرس لاهثة.... حين رآه يكذب على فرسه؛ عاد من حيث أتى دون أن يسأله السؤال! فقال مع نفسه:..

- والذي بيده الملك، من يكذب على فرس بريئة، ليس أميناً على حفظ حديث الرسول صلَّ الله عليه وسلم.

المهم أكمل محمد دراسته الثانوية ومن ثم تقدم لأحدى الجامعات الأمريكية على غرار صديقه عادل الذي سبقه إليها قبل سنتين، مشجعا إياه على الالتحاق به.

تم قبوله كطالب في قسم الهندسة المعمارية، ليبدأ مشوار حياة جديدة وغريبة بأسلوبها وسلوكها وفكرها ورواقها...الخ. أراد بذلك تحقيق رغبته بدراسة جادة وبعلم يقين، يتوافق مع ميوله ليخدم نفسه ووطنه، إضافة لاختلاطه الذي سيكسبه مهارة في الثقافة والاطلاع والخوض في عمق اللغة الإنجليزية.

كما أنه أراد أن يخرج عن روتين الحياة، ويتعرف على معالم العالم الخارجي، الذي هو أشبه باللغز المحير بالنسبة له، فمعلوماته محصورة على ضوء الخبر الذي كان يتلقاه عبر شاشة التلفاز والصحف اليومية. ومن الطبيعي الدراسة في الجامعات تكون مختلطة بين الشباب والشابات، ومن الطبيعي أن تحدث عملية الاختلاط الأكيدة بين الجنسين.

كان محمد بطبيعته وتربيته يتجنب مسألة الاختلاط وما شابه ذلك من هذه الأمور، دائما ما يحاول أن يضع نفسه في قالبٍ خاص به، إطار يميزه عن أقرانه، يجنبه الانحراف، محيطاً ذاته بسياج من العزلة، يحجبه عن مخالطة الجنس اللطيف، ليتجنب الهفوات والرعنات التي قد لا يسيطر بها على سلوكه وقد تزيحه عن خط هدفه بنيل شهادة تفوقه العلمية.

كان قد تجنب مصاحبة الفتيات بشكل عام في إطار الجامعة وخارجها؛ تجنب حتى اللاتي يصادفنّه في الطرق، يغض الطرف عنهن، لا يجلسهن، نادرا ما يكلمهن، يتجنب مناقشاتهن إلا ما ندر في ما يخص في أمور الدراسة إلا إذا تطلبت الحاجة، حتى لقب من قبل زملائه التلاميذ بالشخص المعقد أو المتخلف.
لم يبالي لتعليقاتهم إطلاقا، ثقته بنفسه حصنته عن الشك والخطأ، كان هادئا، ذكيا، متمكنا في دراسته، متمكنا من اللغة والعلم، يشغل فكره في المادة، يتمعن بشتى الأفِكار والغور بها والخوض بحل ألغازها وبالذات الألغاز العلمية منها.
أدرك أستاذه حدود شخصيته، فكال له الاحترام والتقدير المبجل في نفسه. كل المجتمعات لها تقاليدها الخاصة بها، كثيرة المرات اللاتي حاولن بها زميلاته من التقرب منه دون أن يفلحن، حتى يئسنَّ منه، لم يكن يصغي إلا لباطن عقله، تلك الدائرة الكهربائية المشبعة بمغناطيسية الأحاديث والقصص والعبر والآيات القرآنية.

قبل تخرجه من الجامعة بسنة؛ أغرم صديقه عادل بفتاة أمريكية شقراء، كان قد أقتنع بها تماما وأصر على الزواج منها، لكنه أصطدم بحاجز الأب الذي لم تروقه الفكرة إطلاقا.
حاول مرارا وتكرارا إقناع أبيه دون جدوى، كأنه يرطم هامته بجدار صلب، لم يفلح بمحاولاته قط.. الحكمة من وجهة نظر أبيه تقول: أنه أبن عادات وتقاليد لا تتطابق مع تلك العادات والتقاليد الغربية، إضافة لاختلاف التربية والدين، وهيَّ مسألة جوهرية يصعب التوافق بينها.
تلك الأسباب جعلت العقدة تتكور بين أعمدة الشواهد، تلك التي وضعت هذه الزيجة في زاوية ضيقة يحيط بها الفشل. في ظن أبيه أنه سيفتقد أبنه نهائيا إذا ما تم زواجه، وقد يتطبع

بعادات الغرب وسلوكياتهم فينسى أدبه ودينه، ينسى أصله وجذوره، فيضيع في وسط المعية كإبرة في كومة قش.

هذا ما سطا على فكره وما لا يريده لأبنه، ولا يرضاه عن نفسه... كان يتأمل لأبنه زوجة من بنات جلدته، على الأقل تشبهه في الذات والعادات والسلوك والتقاليد والدين واللغة، فتختفي الفوارق بينهما.

لكنَّ عادل لشغفه وهيامه بجمالها تمسك بقراره، عطّل دائرة فكره، الحب أعماه، سلب إرادته، صيره لعبة بين أيادي القدر، الأجواء دحدحته بين أمواج الظرف، لم يصغي إلا لعقله الباطني، الذي جرده عن أصل واقعه، ليسكن خيمة شغفه هائما بها وحيد الفكر، حيث القلب وما هوى....

لقد تعلق بفتاة أحلامه تعلق الروح بالجسد، لم تغفل عيناه عن شبح خيالها قط، تلك التي غص بها دون حكمة، وولج بها في رؤاه وأحلامه، تعلق بها تعلق النغمة بالوتر لحسنها وجاذبيتها.

أينما تذهب؛ يتبع خطها، وأينما تحل، يحل كقدر بين يديها، لرقتها وسحرها وجاذبيتها وطيب حواراتها في جميع المجالات.

بعد أن تيقن من شعورها المتبادل رضخ لتأملات أحلامه التي رسمت له أقداره، هام في تلك الوردة الشفافة التي شغلت فكره وشغفت قلبه لرقتها وسحر جاذبيتها وعبق فتنتها....

بنفس الوقت كان قد تمسك برضا الوالدين، لن يستطع أن يحيد عن سراط تربيته، أو يغفل عن رغبة والده، فهو ينظر له بعين الاعتبار، لا يريد أن يفسد حلمه الذي راوده طويلا، ليفتخر به أمام أصدقائه ومجتمعه، لقد قدم له الغالي والنفيس، صرف عليه جل عمره في تعليمه وتهذيبه، لم يبخل عليه يوما قط، لم يقف عارضا أمام رغباته قط.

ولكن هذه الحالة تختلف، فهي حدا فاصلا بين رغبات النفس وأمنيات الأب. لن يستطيع أن يتنازل عن رغبات قلبه، في

الوقت الذي به لن يستطيع أن يتجاوز والده ويبغضه.

كانت محاولاته كمن يتسلق جبلا شاهقا، ففي كل مرة يخفق في تجسيد محاولاته بالنجاح، لم يستطع أن يلين عقل والده، ليصل إلى تلك القمة الشاهقة التي تتلألأ فوقها غايته كنجمة ساطعة، ولا أن يتنازل عن قدره.

الرفض القاطع كان حاضرا من قبل الأب، مما جعله يعيش صراعا متعبا مع النفس، تلك الأجواء نقلته لحالة أنشداه البال، وقلة التركيز. الهم عصف بمشاعره، أحاله إلى ركام تذره الرياح، حتى كاد يختنق من دخان العطب المكنون في صدره.

الكلمات الأخيرة الرنانة التي نطق بها أبوه بقيت ترن في أذنيه كجرس الشاة.... "إن تزوجتها فأنت لست أبني"!....

شكا ذلك مرارا لصديقه محمد، فلم يجد من يصغي له ويسعفه ويرشده ويحسن من وضعه سواه، ترى إلى أين المسير؟ الغربة كورته أمامه....

بحث عن صديقه فوجده جالسا في ركن من أركان الجامعة، تقدم منه، سلم عليه، شكى له ما يعتريه..

قال له محمد:..

- يا أخي عادل.. أنت أكبر مني سنا وأكثر مني خبرة في مجال الحياة، يجب أن تتزوج من جلدتك، أنت بطبعك مسلم؛ زواجك من غير مسلمة سيكون زواجا فاشلا، مليء بالعقد، لاختلاف الأهداف والتربية. صدقني مع الزمن ستضمحل الوشائج، ستدعس على العلاقة، هذه نزوة شيطانية تحيط بك، تحرفك عن العادات والتقاليد، فلن تجد فيها سعادة تلين خشونة السرير.

ستكون العيشة مزريه، ستعيش غربة داخل غربتك، ومع الأيام ستكبر المشاكل، ستلطخ الثوب الأبيض بسواد العقد وتفاهة الفكر.. ثم كيف تود مخالفة شرع الله ((وَلا تَنكِحُوا

الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)).
هنا لمحت له فكرة، ولا تنكحو المش.....

- لـمَ تنظـر إلـى الأمـور مـن وجهـة نظـر سـوداوية، مـن نافـذة لا تعكـس الحقيقـة، أنـا أحبهـا وهـي تحبنـي، كلانـا سـنتحمل وزر الـبعض، سـنجتاز خنـدق الصـعاب بيسـر - ألا توجـد زيجـات مـن هـذا النـوع نجحـت وبنـت أسرٌ سـاهمت فـي تقدم المجتمع؟.
- بـلا... كـل لـه ظرفـه، وأنـا أعـرف ظرفـك جيـدا، حالتـك لا تتطـابق مـع مـا ذكـرت، ماركتـك شـرقية مزدانـة بـألوان الجذور الإسلامية لا تطابق أية ماركة أخرى.

يـا أخـي! الـزواج لا يبنـى بالحـب فقـط، أنمـا بـالتوازن، لونـك يختلـف عـن لونهـا، كـل لـه سـراطه الخـاص، ولـن تلتقيـان أبـدا. تـذكر جيـدا؛ للعقـد أتـراس مسـننة حـادة، تجـرح، تتـرك أثـرا بليغـا فـي الجسـد، لا يعـالج بالحـب أطلاقـا، بـل بتلاقـي الـذهني والروحـي والعـادات والرغبـات.. يجـب أن تـدرك بـأن العلاقـة قبـل الـزوج تختلـف عمـا عليـه مـن بعـده، كـاختلاف الليـل والنهـار، فلـن تجـد مـن يـؤازرك ويتحمـل وزرك سوى بنت بلدك المسلمة.

- الظـاهر كلانـا غيـر متفقـين، كثيـرا مـا تراودنـي الأحـلام علـى أن أسـتقر هنـا، ففـي بلـداننا الحريـة مكبوتـة، والسـعادة ينقصـها فضـل الاسـتمتاع بهـا، وسـائل الترفيـه شـبه معدومـة، الـم تعـاني أنـت مـن هـذه الأمـور؟ ألـم تلـتمس الفارق التقني بيننا وبينهم؟..
- أظـن للسـعادة ألـوان مختلفـة يـا عـادل، كطيـف الشـمس، مـا تـراه هنـا سـعادة، ربمـا تجـد لهـا لـون آخـر فـي بلـدك- دخولـك السـينما والبـارات وشـرب الخمـر لا يعـادل صـوم رمضـان وطقوسـه فـي بلـداننا، ولا بهرجـة وأفـراح أيـام الأعيـاد (عيـد

الفطـر والأضـحى) عنـدنا، الاسـتمتاع بالعلاقـات المزيفـة والمبنيـة علـى المصـالح والجـنس والتعـري والملـذات والقمـار ومداعبـة النسـاء، لا تعـادل الصـدق والعفـة والنيـة والنظافـة والحشـمة والحيـاء والألفـة والجيـرة وحـب الخيـر والتصـدق فـي بلـداننا. نحـن نحـتفظ بـالقمم والقـيم وهـم يحتفظون بالقمامة، يجب أن تفرق بين قيمنا وقيمهم.

عـادل أعمـاه الحـب، لـم يقتنـع بالشـكل ولا بـالجوهر لأفكـار صـاحبه، تفكيـره منصـب فـي جهـة حبيبتـه، عقلـه يعتبـر نافـذة مغلقة، لا يرى من خلاله حدود العلاقة خارج مسارات القلب.

لكنـه أمتـنن لفكـرة صـديقه، لأنـه فطنـه علـى فكـرة إسـلامها، أنهـا فكـرة جليلـة اسـتنبطها مـن خـلال نقاشـه-- بإسـلامها ربمـا يغيـر رأي والده، أنه متيقن من حبيبته سوف لا تمانع مطلقا في مجاراته.

جمع بعض الكلمات في فكره ورنَّ على والده يهاتفه ...

- ألو .... كيف حالك يا أبي، كيف الوالدة العزيزة؟..
- الحمـد لله يـا بنـي، فكرنـا منشـغل بـك، ننتظـر عودتـك بفـارغ الصبر.
- أود أن أخـذ رأيـك فـي مسـألة زواجـي، فأنـا لـن أخـالف رايـك أبـدا.... يـا تـرى؛ هـل أكسـب رضـاك لـو أنهـا أسـلمت؟ أتسمح لي بالزواج منها؟
- نعـم يـا بنـي، سـأفتخر بـك أمـام ربـي، سـأكون أسـعد الخلـق على أن تعيش معنا لتتعلم عاداتنا وتقاليدنا.

انفرجـت أسـاريره وتكيـف مـع الوضـع الجديـد، المسـألة حلـت عقدتها، لن تكلفه سوى إسلام حبيبته....

لكن كيف ستسّلِمْ وتترك دينها؟ كيف سيقنعها ؟.....

وفـي اليـوم التـالي أخبرهـا بواقـع الأمـر، أخبرهـا بالحقيقـة!....

أن العقبة الوحيدة في الزواج منها هو إسلامها حسب رغبة الأب والدين الإسلامي. أنه لا يريد أن يبغض أبوه ويخسره، فعقوق الوالدين ليس لدائها دواء أبدا، رضا الله من رضا الوالدين والعاقبة للمتقين.

أخبرها بفكرة الإسلام وهذا هو شرط والده اللازم لجمعهما...

سألته الآنسة **روز** بشغف وكانت في قرارة نفسها تود التعرف عن الإسلام لأنها غير متدينة:....

- وكيف أسلم؟ علمني الإسلام أولاً.....

أقتنى لها كتباً باللغة الإنجليزية عن الإسلام والقرآن وأحاديث الرسول، والسيرة وما إلى ذلك من كتب الفقه العديدة، دفعها إليها دفعة واحدة، مع قراءة مجودة باللغة العربية للقرآن.. ثم قال لها: ...

- إقراءيها بتمعن وتركيز مع التفسير المرفق....
- أمهلني أربعة أشهر على أن لا ألتقيك بها، ولا تلتقيني. كي لا يُفسدَ الأمر، كي لا يكون لك تأثير سلبي على أفكاري، أو تكون لي حجة ما عليك مستقبلا في حالة عدم قناعتي بدينك... أود أن تبزغ القناعة من بوتقة أحاسيسي وأفكاري، كي استطيع مجاراة الحالة بتغير ثوب الجسد والعقل، لأنظر لما حولي بقناعة ذاتية وليس بتأثير خارجي.
- وهو كذلك...

كان الحب كفيلا بأن يعقدا الاتفاق بهدوء، كما تعلق بها تعلقت به روز. حبها المتيم كان كفيلا بأن تنغمس في قراءة الكتب بتيقن وإمعان عميق؛ لتعرف امتداد حبيبها، لتعرف إرهاصاته الفكرية التي تكبل بها والتي ستتزوج منه برغبة،

لتكن على دراية تامة بما يمنعه أو يتحكم به.

انقطعت خلال تلك المدة عن العالم تماما، حتى صارت تبحث في أمور الدين عبر الويب سايت (الأنترنت)، لتوسيع مداركها أكثر وأكثر.

في إبرامها الاتفاق معه أظهرت ذكاءً مفرطا في فرض شرطها عليه، لتستطيع أن تستوعب مضمون الكتب، وكان لزاما عليها أيضا أن تبتعد عنه تماما، القناعة ضرورية في إقرار القرار، كي لا تلوم نفسها حين تتخذ القرار المناسب، كي لا تضع أمامها مبررات الفشل وملامة الأهل والأصدقاء.

سارت على هذا المنوال تقرأ الكتب بعيداً عن الضغوطات الخارجية، استمرت القطيعة حتى كاد عادل أن يجن بغيابها، ود أن يلتقيها، أن يشبع غرائزه من جمالها الفاتن، هذا الشاب عدّ هذه المدة بالساعات والدقائق، لا بل بالثواني، لكنه لا يود أن يفسد مشروعه، لا يود أن يبغضها ويضع حجر عثرة أمام رغباته، كان قد بحث عنها في ذاته وفي عيون المجتمع وأرجاء الطرق دون أن يشعرها.

فيما كانت هي الأذكى بحيث تجنبته نهائيا، لا بل صارت تتحاشى الأماكن التي طالما كانا يلتقيان بها، صارت تنظر إليه كما ينظر القمر إلينا من خلف ستار السحب، تحاشت لقائه بذكائها وبفكرها حتى أنقضت فترة السبات الطويلة.. حينها خرجت دودة القز من شرنقتها بعد فترة السبات فراشة جميلة، براقة بثوبها الجديد.

لم يلتقيها أنما هي التي التقته بلباس غير التي كانت تلبس، وبشكل يختلف عما تعرف عليها، ما عادت ترتدي القصير، ولا عادت تفرط خصل شعرها الأصهب، صارت ترتدي حجابا بسيطا وثيابا مستورة.

فرح بلقائها، هجس برغبة احتضانها، بتقبيلها، لكنها لم تكن

عندها تلك اللهفة ولا تلك الرغبة الجامحة التي كانت تتملكها سابقا، لم تكن لها لهفة إليه كلهفته عليها، كانت عادية وكأنها تلتقيه لأول مرة في حياتها.

في الوهلة الأولى سلمت عليه سلام الإسلام؛ فأصابته بسهم إيمانها في مقتله، غص في فرحٍ وجذلٍ عميقين، انفرجت أساريره، غق بصمت واندهاش، فلتْ طيور أفكاره من قفص ذاكرته.. وقبل أن ينغمس بألوانها الجديدة؛ أغلقت ظرف الحب بيدها للأبد، أدركته بحقيقتها الجديدة قبل أن يثني عليها، وقبل أن يعد لها وعود الفرح والزواج؛ أفقدته توازنه، لكمته بالضربة القاضية، اختزلت صبره الطويل بالمفاجأة المدوية... كانت قد أخبرته بما اختزنت في داخلها من أفكار صريحة وصادقة، قائلة له:...

- أني قد أسلمت واقتنعت بالإسلام، والإسلام دين حق--- لكنني لن أستطع أن أتزوج منك!! لأنك بالمعنى الحقيقي للإسلام لست مسلماً! إنما متجنٍ على الإسلام. أنا أشكرك لأنك عرفتني عن الحقيقة الضائعة التي كنت أبحث عنها في دهاليز أفكاري منذ زمن، ما كنت أصل اليها لولا وجودك في حياتي. أنت الذي وضح لي السبل وإنارة لي الجانب المظلم من حياتي، قبل الإسلام كنت أعيش في عالم مليء بالكذب والخداع، الله أرسلك إليَّ لتنقذني لأنه يعرف مكنون قلبي الطيب. من اليوم سأعتبرك صديقا لي لا أكثر، ممكن أستعين بك أن واجهتني معضلة ما في المستقبل.

صدمته بواقعها الجديد، وقراراها الجديد، لم يكن ينتظر مأساته أن تحصل على يدها، ضاق الكون به، بات لا يُرسِّي على حجر، لم ينم ليلته، كانت ليلة ليلاء تلك التي أنشغل بها

تفكيره دون أن يخطو خطوة جريئة نحو هدفه، بعد أن تجرد من حلمه وهشِمَ صرحه بقوة عصفها، لازم وحدته.

في صباح اليوم التالي التجأ إلى صديقه محمد! ليفرغ همومه في جعبته، كان محمد كعادته يجلس على أريكة في فنار حديقة الجامعة في يوم مشمس، لم يكن قد سحرته امرأة قط، كان همه أن يكمل الجامعة بتفوق كما وعد أبوه، فهو لم ينسى نظرات والدته المليئة بالدعاء حين ودعته وحين رشت خلفه طاسة الماء، تجنبا للشر والعين الحاسدة. كان منهمكا في مذاكرته وتحقيق وعده لوالديه بالتفوق.

- صباح الخير محمد ....
- صباح النور.... ما بك متجهم الوجه، لم هذه الدموع محصورة في مقلتيك؟ ماذا جرى لك يا رجل! هل ممكن أن تخبرني؟ هل أهلك بخير؟....
- أطمأن لا شيء من هذا القبيل.... لقد أخلفت روز وعدها معي بعد أن جعلتني أتعلق بها. لم ترضى بي زوجا لها، بعد أن كانت تتأملني وتتوسل بي من قبل.
- لِمَ كل هذا؟....
- لقد أسلمت!
- عظيم.
- وصارت تعُدَني من غير المسلمين، تغيرت نظرتها عليَّ تماما، تأثرت بالإسلام، فتغيرت زاوية نظرها أتجاهي ب 180°، تبدلت النسب في تقديراتها، فوجدتني مخالفا لشرائع الإسلام.

محمد مازحا:...

- هههههههههه والله لم تقل سوى الحق، لم أنت غاضب يا أخي أليست ما قالته حقيقة؟ هههههه –
- أنا لست فاض للمزاح، أرجوك قدر وضعي.... ما هو

الحل لديك؟ أنا مشتت الفكر، أخرجني من أزمتي.

- قلت لك لا تحاول معهن، مقياس ثيابهن لا يليق بنا، ثم لو تزوجتها وهي غير مسلمة، حتما ستتركك يوما ما، إذا ما أسلمت وتعرفت على الاسلام جيدا، لأنها سوف تراك بمنظار الذي اكتشفتك به الآن، فأنت واقف على الحد، بين أن تكون مسلما حقيقيا أو ملحدا، الوجهين ينطبقان عليك. يا أخي؛ أغسل اللون الرمادي من وجهك كي يبيض، البياض رونق القلوب الصافية وهو سيد الألوان.
- لن أنتظر هنا، سأرجع للوطن بمجرد استلام شهادة تخرجي، فأنا بحاجة إلى النسيان.

******

أصبح عادل عبرة له، بقي على حال سبيله خلال السنتين الأخيرتين بعيدا عن عالم النساء والخمر، وهو الذي لا يحتاج لعبر كي يلتزم بأدبه وأخلاقه...لم يتغير طوال مدة دراسته، تجنب النساء وخاصة زميلاته داخل قاعات الدراسة، متحفظا بعلاقاته ومحتفظا بعاداته وتقاليده المشبعة بقيم الدين الإسلامي.

كان أستاذه الدكتور قد قرأ صفحته بعناية، فأحترم رغبته، حاول مرارا أن يبعده عن المواقف المحرجة، لا يجعله يحتك بهنَّ أو يكلمهنَّ، لا بل أنه تفهم وجهة نظره جيدا، حينما بين له محمد الحقيقة التي يقتنع بها، بل هو أحب محمد على حسن أخلاقه وتربيته الفاضلة وصدقه، فصار من المقربين لديه، صار ممن يستعين بهم لمعرفة خفايا الشرق وجوهر الدين..... سارت الأمور على هذا المنوال إلى أن وصل إلى نهاية المرحلة النهائية من الدراسة، حينها أخبره الدكتور المشرف بآلية العمل قبل التخرج. فقال له:..

- أحترم رغبتك في عدم الاختلاط بالفتيات، ولكن هناك

عرف لابد منه، وعليك التكيف معه في الفترة المقبلة. ألا وهو الاشتراك كمجموعة في بحث التخرج. العمل سيكون مشتركا.. أي أنكم ستقسمون لمجموعات، وكل مجموعة ستقوم ببحث مشترك، وهذه المجموعات ليس دخل لي في اختيارها أو أنشائها. ستكون مختلطة بين الذكور والإناث حسب التوزيع الإلكتروني.. تتناقشوا، وتكتبوا أبحاثكم الخاص بكم، وهذا البحث سيكون الدليل الوحيد لعبوركم المرحلة، وستكون ضمن كل مجموعة عدد من الفتيات، عليك أن تتعامل معهن وأن تكتبوا بحثا مشتركا يكون سبب عبوركم المرحلة.

- حاضر يا أستاذ.. سأكون عند حسن ضنك.

لم يبدي امتعاضا من الوضع الجديد، استمرت اللقاءات بين أفراد المجموعة على طاولة بحث واحدة، وكانت ضمن مجموعتهم فتاة واحدة أمريكية. كان دائما ما يغض النظر عن الفتاة، إن تكلمت كلمها دون أن يركز بنظره إليها، إذا أعطته ورقة ما أخذها منها دون أن يلتفت إليها، دون أن يبتسم معها أو يلاطفها أو يحتسي شيء معها. كأنه بتصرفه هذا لا يعير إليها أية اهتمام، هذا ما كانت تشعر به مما أغاض مشاعرها كثيرا.

فيما هو كان يجد حرجا من وجودها جالسة بجانبه ،عملا بقوله تعالى{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ} صدق الله العظيم.

صبرت الفتاة على مضض، المرارة تلوك في نفسها وفي فمها، يكاد الأمر لا يطاق بعد أن تكدرت الألفة بينهما، شعرت بتصرفه هذا؛ تصرف أهوج فيه إهانة لها، شعرت أنه لا يكن لها احتراما أو قيمة ما، حتى تأودت العلاقة وتنحت نحو الصدام من وجهة نظرها..

أنما للصبر حدود لا يمكن تجاوزه، هذه الاستفزازات التي شعرت بها شنجت أعصابها. طاقتها محدودة.. مرة تلو المرة تراكمت في ذهنها نفايات تلك اللقاءات، وبلادة إجهاضها، فلم تعد تحتمل أعباء قسوة النظرة، وهشاشة الأرضية الرخوة التي تقف عليها دون احترام واضح.

وفي يوم مغبر من حياتها، أتقدت شرارتها، علا صخبها هواجس الظن، هبت بوجه كريح عاصفة، أقلعت وشائج العرف والصمت والصبر من جذورها، حطمت جدار الاحترام الواهي، أقصت الزمالة بعد أن يئست من ترميمها، جعلت الهوة تحيل بينها وبينه، تصحرت، قحلت تلك العلاقة من جانبها تماما. الطامة حلت كالصاعقة على قفا رأسه؛ حتى جعلته متقوقعا بصمته دون أن ينبس بشفة-- صارت تسبه، تشتمه، تسب العرب والإسلام، تنعته بالقبح والتخلف وقلة الذوق....الخ من قبح وذم مما قالته.

- أنتم حثالة، لا تحترمون النساء، لا تعرفون من الحضارة شيء، منحطون، سفلة، أغبياء....الخ...

لم تدع شيئا في قاموس السب إلا وذكرته له، وكنته به..... حلت عليه كالغمامة السوداء، ترعد، تبرق، تمطر مطرا أسودا، زخت عليه غضبها بكل أنواع القسوة.. رغم كل ذلك لم ينبس بشفة، بقي جالسا ينتظر أن تفرغ مخزونها، دون أن يرفع رأسه، دون أن يرفع نظره إليها... حتى وجدت نفسها قد زلت كثيرا، فانكمشت داخل نفسها، أنكشف سترها، فلم تعد تستطع أن تلم قبحها وسخريتها....

أما هو؛ فلم يخرج عن طبع الهدوء الذي تقمصه، تركها على سجيتها تلفظ حمم بركانها من حدقات عينيها، حتى استكانت وهدأت ثورتها، باتت أشبه بالرماد تذرها الريح في العراء، لا تعرف السكينة، أصابها الخجل، أصفر وجهها لعدم

رده عليهـــا ولـــو بنظـــرة.... ودت أن تعتـــذر منـــه دون أن تجـــد مخرجا من حرجها.

بعد أن هدأت قال لها:..

- أهـدئي يـا ليمـا!... أشـربي قلـيلا مـن المـاء، سـأجلب لـك عصير الليمون ليهدئ أعصابك.

بعد أن جلب لها العصير قال لها:....

- سأوضـح لـك مـا عانيـت منـه، نحـن لسـنا مثـل مـا تصـورت وذكرت.... نحن أرقى بكثير مما يخطر في بالك...

حـين إذ انتبهـت لـه، وأصـغت لـه مفلجـة حـدقات عينيهـا الواجفـة، الصـمت مـلأ فاهها الفـاغر، المفتـوح بغرابـة لمـا تسـمع، ومـا أصابها من اندهاش، قال لها:.....

- لـو كـان عنـدك قطعـة مـن الألمـاس الغاليـة؛ مـاذا سـتفعلين بهـا؟.. ألا تضـعينها فـي قطعـة مـن المخمـل بعنايـة تامـة وحـرص شـديد، ثـم تضـعينها داخـل الخزانـة بعيـدا عـن أعـين الغربـاء والغرمـاء؟ إلا تحتفظـين بهـا بعيـدا عـن الأعـين المتلصصـة التـي تُلتـعْ بجمالهـا؟ خوفـا مـن أن تحـيط بهـا خيـوط الشـر. ألا تتـزينين بهـا فـي المناسـبات لتزيـدك بهجـة وإشراقة؟.....

- بلا! من الطبيعي أن أفعل ذلك، لأنها جوهرة.

- نحـن كـذلك ننظـر للمـرأة كـالجوهرة.... فهـي غاليـة جـدا، بـل أغلـى مـن المـاس، أغلـى شـيء يمكـن أن يحـتفظ بـه الرجـل فـي حياتـه. ومـن المفـروض أن تحـتفظ المـرأة بجمالهـا وجسـدها لزوجهـا فقـط. لا علاقـات جنسـية قبـل الـزواج ولا صـداقات مزيفـة، كـل طـرف يحـافظ علـى الآخـر بصـدق وثقـة تامـة، كمـا يحـافظ الشـخص علـى عينيـه وجوهرتـه، يجمعهمـا الحـب والاحتـرام. لا يجـوز للمـرأة أن تنظـر لغيـر زوجهـا، وكـذلك الـزوج لا ينظـر لغيـر زوجتـه،

مثلما يفتخر بها في المجتمع، وهي كذلك تفتخر به.

- ألهذا السبب تغض النظر عني؟
- نعم .... عندكم المرأة كسيجارة الحشيش، كلٍ يأخذ منها نفسا أو نفسين ثم يمررها إلى صديقه، وصديقه يمررها إلى الآخر حتى تنتهي، ثم ترمى بين الأرجل لتسحق وتداس بالأقدام. ثم بعد ذلك يبحث عن سيجارة جديدة، وهكذا هلم جرا.

نحن لا نريد المرأة أن تكون سيجارة تحترق بين الأفواه، ومن ثم تسحق بالأقدام، نحن نعشقها كجوهرة الماسة، كلما مر عليها الزمن تزداد بريقا ولمعانا وقيمة، لتبقى محافظة على جمالها وقيمتها ورقتها في البيت وفي المجتمع.

بعد ذلك النقاش؛ انقطعت ليما عن المجموعة مدة أسبوع تقريبا.. فلم يفكر بها، ولم يسأل عنها، وكأنها لا وجود لها..

وذات يوم وخلال محاضرة الأستاذ، جاءت امرأة متحجبة وجلست في آخر الفصل.. استغرب الجميع!! لأنه لم تكن معهم طوال السنة الدراسية في الجامعة امرأة محجبة. وبعد انتهاء المحاضرة؛ تقدمت منه وتحدثت معه، فكانت المفاجئة، أنها لم تكن سوى تلك الفتاة الأمريكية ليما!.... والتي كانت من ضمن مجموعتهم لكتابة بحث التخرج.... تقدمت منه منحنية الرأس وكأنها تود أن تعتذر عما حصل وبدر منها فيما مضى من تهجم بلا مبرر.

- أنا آسفة لم أكن أفهمك....
- لا عليك ياليما.... أنا لم أسمع ما قلتِ، ولم أفكر بكلامك إطلاقا، أنها لحظات قد ولت.
- أود أن أعلمك بأني أود دخول الإسلام على يديك،

وأودك أن تساعدني وتعلمني كيف ابدأ وكيف أخطو خطواتي الأولى.

- يا بشراك!.... يا رب! تهدي من تشاء وتظل من تشاء -- ثم علمها الشهادة.. فشهدت أمامه (أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله) ثم صار يتواصل معها يوما بعد يوم، حتى تقوت الوشائج وزادت الألفة.

دخلت في الإسلام لأنها وحسب قولها قد هزتها تلك الكلمات التي قالها لها محمد، فصارت تلتقي به كل يوم، حتى تخضبت روحها بمبادئ الإسلام..

أقتنى لها بعض الكتب الدينية بلغتها، صارت تدرس الدين، وتزداد تعمقا به، أصبح لقاءاتهما شبه يومية، حتى استوعبته تماما.

وبعد التخرج وقبل أن يفترقا عرضت عليه نفسها للزواج منه قائلة:.....

- أبعد أن هديتني تتركني؟ – أريد الزواج منك! فأنت سيد الشباب، لقد غيرتني فأعجبني أدبك، ووسامتك وأخلاقك ودينك الحنيف، سأخلص لك ما حييت.
- وكيف لك أن تتركي واقعك وعاداتك وبلدك وأهلك، فأنا لن أمكث هنا سأرجع إلى بلادي بعد التخرج مباشرة.
- سأكون كما ترغب، مثالية، مطيعة، أتبعك أينما ترحل!....
- شرطي الوحيد هو موافقة والديَّ، عليك أن تنتظري ردهم....

أرسل صورتها لوالديه عبر الحاسب الآلي، وذكر لهم تفاصيل قصته معها بالكامل، وبعد مداولة يومين أتصل به أبوه وقال له –

- يا بني على بركة الله، أحرص عليها، فلك أجر إسلامها وأجر زواجها وهدايتها، فتوكل على الله.

لم يتأخر عن قرار أبيه، أتصل بالدكتور وزملاء الدراسة، عمل فرحا صغيرا بمعية أسرة العروسة ليما والزملاء. طوق سواعدها وجيدها بالذهب الخالص. تغيرت مفاهيم زملائه، لم يصدقوا ما حدث، صار شخص جليلا في نظرهم، الكل يكن له الاحترام والتقدير، لقد فرض نفسه واحترامه دون عناء أو تكلف.

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- نقط الحروف
9- الاقداح المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- صور مضيئة

عباس مجلات البياتي

إن يدرك بأن الطفل هو ناتج أبوه.. أي بمعنى آخر؛ صور الأبن هي نسخة طبق الأصل من أخلاق وأدب والده، مع رتوش إضافية تلمع حدود الشخصية في مجال حياته.

كان قد أوصاه بالتقوى وحسن الأدب والمآب، فقال له كقول العالم الجليل الصالح رويم لابنه في بداية نشأته، حيث قال له:.....

[يا بني أجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً] .....

أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته قياسا إلى العمل كنسبة الدقيق إلى الملح في خلطة عجينة الخبز. كثير من الأدب مع قليل من العمل الصالح، خير من كثرة العمل مع قلة الأدب.

أراده أن يكون مثاليا في سلوكه ليفتخر به، فتحقق له ما أراد وما ظن به، تربى على ديدن أبيه مبتعدا عن الكذب والغش والتصنع والإباحية والتبذير، أشبع ذهنه بخصال المكرمين من الأولياء والصحابة، محصنا فكره بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وبكم هائل من العبر والقصص المستسقاة من وحي القرآن والتراث، لتكن بين يديه أسلحة يتفادى بها مهاوي الخطأ، وما إلى ذلك من أمور الدنيا المقاجئة التي حتما ستعتري طريقه...